قضايا

obeikandl.com

obeikandl.com

إنها : مشكلة .. أن نحب مصر

كانوا يقولون كثيرا : إن الفرنسى بمفرده شخص ذكى . وإذا اجتمع فرنسيان يبدأ النقاش .وإذا اجتمع ثلاثة .. تبدأ الفوضى .

أما الإنجليزى فهو بمفرده شخص غبى . وإذا اجتمع انجليزيان تبدأ الرياضة . وإذا اجتمع ثلاثة .. تبدأ الإمبراطورية البريطانية !

حسنا .. ماذا عن المصرى ؟

إن الذى قيل عن الفرنسيين والإنجليز كان فكاهة . الآن لا توجد فى فرنسا فوضى ، بل يوجد اتهام أوربى بأن فرنسا عاشت دائما تحت حكم الموظفين .. واتهام بأن بريطانيا أضاعت امبراطورية . بل إنه فى الشهر الماضى فقط صدر أحدث كتاب يحلل أسباب انهيار الإمبراطورية التى لم تكن تغرب عنها الشمس . وصدرت أيضا حلقات تليفزيونية تسجل ، بغل دفين ، أن مصر تحديدا هى التى دفنت الإمبراطورية البريطانية فى مياه قناة السويس سنة ١٩٥٦ . لقد جرى التراجع .. ومن يومها تستمر المراجعة ويتوالى توزيع قوائم الإتهام .

لكن .. ماذا عن المصريين ؟

هل المصريون هم الذين قال عنهم بعض العرب قديما : «قال العقل أنا لاحق بالشام .. فقالت الفتنة : وأنا معك . وقال الشقاء أنا لاحق بالبادية .. فقالت الصحة : وأنا معك . وقال الخصب أنا لاحق بمصر .. فقال الذل : وأنا معك» .

هل المصريون هم الذين قال عنهم اللورد كرومر : «إنهم مسلمون وليس فيهم خواص إسلامية .. وأوربيون وليس فيهم خواص أوربية» ؟!

● جريدة «أخبار اليوم» : ١٩٧٦/١٢/١٨ .

وإذا كان كرومر إنجليزيا وعاش يحكم مصر ممثلا للإحتلال البريطانى فيها .. فماذا عن الآخرين ؟

ماذا عن عمرو بن العاص فى وصفه لمصر : «نيلها عجب .. وترابها ذهب .. وأمراؤها جلب .. وهى لمن غلب» ؟!

ماذا عن أحمد شوقى ، أمير الشعراء ، الذى قال عن شعب مصر :

أثر البهتان فيه   وانطلى الزور عليه
يا له من ببغاء   عقله فى أذنيه
ملأ الجو هتافا   بحياتى قاتليه

وإذا لم يكن هذا هو معنى «المصرية» .. فماذا إذن ؟

هل المصرية هى الشعور بمركبات النقص كما كتب صبحى وحيدة فى سنة ١٩٥٠ ؟ هل هى الشخص الفهلوى كما كتب حامد عمار فى سنة ١٩٦٤ ؟ هل الإيمان بأن بلدنا هى «بلد الأخيار ومصر الأمصار» كما كتب عبد الله النديم فى أواخر القرن التاسع عشر ؟ هل هى «ابن البلد» الذى هو «ذكى ، إلا أنه جاهل .. وظريف ، سوى أنه مغرور .. يجود فى غير كرم ويمسك فى غير بخل ويتكلم بغير علم» كما كتب ابراهيم عبد القادر المازنى فى أواخر الأربعينات من القرن العشرين ؟

هل مصر هى العبقرية فى المكان كما يحللها الدكتور جمال حمدان فى كتابه الموسوعى ؟ أو أن مصر هى « مثل رائع للتقدم ، خطت فى سبعين عاما ما خطاه غيرها فى خمسمائة سنة» كما كتبت صحيفة «التايمز» البريطانية فى سنة ١٨٧٦ بالضبط ؟

هل مصر هى «تلك الخبرة الضخمة والحكمة العميقة التى يجب أن نتعلم منها» كما كتب زعيم الهند الراحل جواهر لال نهرو ؟

أو أنها مليئة بالمضحكات كما قال الشاعر العربى الكبير المتنبى ؟

هل مصر هى تلك الحضارة العظيمة التى دافع عنها عباس محمود العقاد .. أو أنها ذلك الوجه الضاحك الباكى الذى يختلط فيه الرجاء مع خيبة الأمل .. كما يرى فكرى أباظة ؟

فى أى إطار من هؤلاء .. نرى مصر ؟ بأى منظار نحبها ؟

إننا نستطيع طبعا أن نحبها ، بتلك الطريقة الغيبية التى يلخصها إيمان الفلاح المصرى حينما يقول إن «مصر هى أم الدنيا» . نستطيع أن نحبها على أساس أنها أمنا . إننا نحب الأم لأنها موجودة . إننا لا نحبها على أساس الصواب والخطأ ، ولكن على أساس واقعة محددة هى أنها أمنا ونحن أبناؤها .. وأيضا لأنه بغير شقائها وتعبها ورعايتها لم نكن لنشب عن طوقنا . إننا ـ بهذا المعنى ـ نستطيع أن نرى مصر خالدة كالبحر .. واسعة وفياضة وبغير حدود . إنها تلقائية ومخصبة تعطى من خيرها بلا مقابل وتفيض بغير مكافأة . إنها تلد ، وتغذى ، وتعطينا من دفئها وشمسها الكثير .

حسنا . ولكن هذا هو ما اعتدنا أن نفعله ، بغير أن نغير فى مصر شيئا كثيرا .. أو تغير هى فينا شيئا كثيرا . اعتدنا أن نهيم بمصر ، ونرتبط بها بمشاعر رومانسية تعتمد على صورة عاطفية محضة ، أساسها الولاء البدائى الغريزى من أبناء نحو أمهم ومصدر حياتهم .

ولكن هذا أيضا لم يصل بنا إلى بعيد . هذا لم يحل الأزمة المستمرة الحادة التى تعيشها مصر فى تاريخها الحديث . أزمة من الاستدارات الحادة ، لا يدركها إلا من يتأمل بعمق تاريخ مصر القريب والمعاصر . فخلال المائتى سنة الأخيرة وحدها .. أقامت مصر امبراطورية وصلت حتى أوغندا جنوبا ، وتونس غربا ، وتركيا شرقا . وفى نفس الوقت تعرضت مصر للغزو المسلح من امبراطورية أولى ، ثم من امبراطورية ثانية ، ثم من امبراطوريتين ونصف معا !

كل هذا فى مائتى سنة !

بل إن هناك ما هو أكثر . ان أحمد عرابى كان بطلا وزعيما وصاحب ثورة بالنسبة لجيله .. ثم أصبح محتالا وجاهلا وأهوج بالنسبة للجيل التالى له مباشرة ، قبل أن ينصفه ويرد إليه اعتباره جيل ثالث .

ومحمد على .. كان منشىء مصر الحديثة بالنسبة للأجيال الثلاثة التالية له .. ثم أصبح مخرب مصر الحديثة بالنسبة للجيل الرابع !

وثورة سنة ١٩١٩ بزعامة سعد زغلول ، كانت أعظم ثورة بالنسبة لجيل مصطفى النحاس .. ثم أصبحت نصف ثورة ، بل وقصيرة النظر بالنسبة لجيل جمال عبد الناصر .

وثورة ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢ نفسها .. كانت رائدة الثورات فى العالم الثالث بالنسبة لشبابها .. ولكنها أصبحت مجرد حكم بوليسى بالنسبة لعجائزها . وأصبح اسم جمال عبد الناصر يجرى إطلاقه على ميادين وشوارع فى عواصم دول تقع فى أمريكا اللاتينية والجنوبية وآسيا وإفريقيا .. ودائرة المعارف البريطانية تسجل اسم ناصر على البحيرة الضخمة التى خلقها السد العالى .. بينما فى مصر ذاتها تسمى فقط باعتبارها بحيرة السد العالى .

وعلى المستوى الحضارى .. كان نابليون بونابرت يمثل فى غزوه لمصر مبشرا بمبادئ الثورة الفرنسية عند فريق من المثقفين المصريين .. ولكنه كان رأس حربة للمطامع الاستعمارية الأوربية بالنسبة لفريق آخر !

وبريطانيا .. كانت بالنسبة للأغلبية مجرد قوة احتلال عسكرى واقتصادى استمرت تنهب مصر لأكثر من سبعين سنة .. ولكنها كانت بالنسبة للأقلية قوة غزو حضارية يمكن أن تستفيد منها مصر .

وأوربا عموما .. مازالت حتى الآن تمثل بالنسبة لجزء من المصريين قوة حضارية متفوقة يجب أن نتعلم على يديها ونأخذ منها التكنولوجيا .. بينما هى بالنسبةللبعض الآخر حضارة كفر وإلحاد وزندقة وانحلال وخنافس يجب أن نبتعد عنها ونحاربها حتى الرمق الأخير .

□□□

أين مصر الحقيقية وسط هذا كله ؟ أين مصر التى تحتاج الآن إلى حبنا ؟ وأين مصر التى تستحق حبنا ؟ ثم .. هل يمكن أن يكون هناك أصلا وجه واحد لمصر نتفق عليه .. وتكوين نفسى واحد للمصرى نبدأ منه ؟ لقد امتد التشويش أحيانا ، خصوصا فى فترات ضعف مصر ، يروج لفكرة أن الحديث عن شخصية مصرية يتعارض أصلا مع الحديث عن انتماء مصر للأمة العربية . مبدئيا .. هذا غير صحيح . فالقومية – أى قومية – هى مفهوم سياسى . أما الشخصية الحضارية فهى مفهوم اجتماعى . إن تحديد ملامح الشخصية المصرية لا يتعارض لحظة واحدة مع اعتبارها جزءا من الوطن العربى . بعبارة أخرى : إن شخصية مصر – كمفهوم اجتماعى – لا تتعارض مع انتماء مصر للقومية العربية كمفهوم سياسى . فليس من المنطق أن نتصور أن أفراد أسرة واحدة ، من أم واحدة وأب واحد ،

يجـب أن يصبحوا جميعا بأخلاق واحدة أو عـادات واحدة أو عقلية واحدة . ومن ناحية أخرى .. فليس من المنطق أن يقوم تناقض بين هذا التميز والاختلاف النفسـى والذهنى .. وبين انتمائهم لأسرة واحدة .

❑❑❑

إن المصـرى الـذى يعيش اليوم علـى أرض مصر .. ربما يرتدى بذلـة ، ويتفرج على التليفزيون ، ويقرأ صحيفة ، ويركب أوتوبيسـا أو سيارة ، ويتحدث فى تليفون ، ويصعد فى أسانسير ، ويرسل برقية ، ويستضىء بالكهرباء . إنه إذن إنسان متحضر .. إذا كانت الحضـارة تعنـى تلك الأدوات التـى اخترعتها الحضارة الحديثة لهـذا العصر . ولكن .. هـل يعنى هـذا أنه قرر – كمصرى – أن ينحاز تماما إلى هـذا العصر ، ويصبح جزءا منه ومتفاعلا معه ؟

لقد ابتلع المصرى طوال تاريخه الطويل تيارات شـتى .. بحيث أن جميع الحضارات هـى الآن مدفونـة فى داخله . إن هذا المصرى الذى هو أنت أو جارك أو زميلك فى العمل ، هو فى الواقع حصيلة عمل سـبعة آلاف سـنة هى عمر الحضارة فى وادى النيل كله . ودولته عريقة ، بغير أن يعنى هذا أنها عجوز .. وعراقتها تمتد خلفا ستة آلاف سـنة . إنها بهذا المعنى أول حضارة فى التاريخ ، وأول دولة سياسية فى كل العصور .

وطوال تلك الفترة الطويلة الممتدة من تاريخنا تراكمت علينا أحداث ومصائب وتحديات وجوائز .. تركت كل منها بصمات لا تنمحى فى تكويننا النفسى والثقافى .. بحيث إنها الآن تشكل جزءا من مشاعرنا نحو أنفسنا ، ونحو جيراننا ، ونحو العالم .

إن الأمثال الشـعبية التى تقول الآن «السـلطان هو اللى ما يعرفش السلطان» .. أو «زى الحاكم ، مالوش إلا اللى قدامه» .. أو «اللى ياكل مرقة السـلطان ، تنحرق شـفته» .. أو «اسـجد لقرد السوء فى زمانه ودياديه ما دام فى سلطانه» .. أو «اللى يخش بيت الإمارة ، يخيط بقه بدوبارة» .. أو «اللى تقول عليه موسى تلاقيه فرعون» .. أو «حاميها حراميها».. أو «اللـى يـاكل عيش الأمير ، يضرب بسـيفه» .. كل هذا الفولكلور مـن الأمثال المعادية للسـلطة ، أو المسـتكينة لها ، هى امتداد للوصايا الأخلاقية الفرعونية فى مصر القديمة ، التى كانت تؤكد دائما على الصمت كفضيلة وتلح كثيرا على عدم الدخول مع السلطان فى مواجهة مكشوفة .

هذا القدر من الوصايا التى احتفظ بها الفلاح المصرى منذ ستة آلاف سنة إلى اليوم .. هذه الأقراص الكلامية من الحكمة التى تتناقلها الأجيال جيلا بعد جيل .. هى حصيلة مجتمع زراعى تكونت منه مصر منذ البداية . إن مصر هبة النيل . هذا صحيح . لكن هذا أيضا له ثمنه . إن الوادى الزراعى شريط ضيق ، تحيط به الصحراء يمينا ويسارا ، والبحر المجهول شمالا ، والصخور جنوبا . إن الوادى هو الحياة . ولكن الهروب من الوادى هو الموت . وإذا كان الحاكم ظالما ، فلا بديل عنه سوى الهروب إلى الموت .

ولكن ، بدلا من أن يهرب المصرى إلى الموت بجسده ، فإنه فضل غالبا أن يهرب إليه بعقله . إنه غالبا – بإسلام أو مسيحية أو بغيرهما – متدين . غالبا يؤمن بالقدر . غالبا يؤمن بأن ما يعجز هو عن حله ، سوف يحله له الزمن . إنه سوف يعيش فى البداية متمردا بحجة أن بلده سوف تؤسس أول امبراطورية فى التاريخ . ولكن ، بمجرد أن تنهار الإمبراطورية ، ويتلاحق الغزو الأجنبى من الرومان والعرب والعثمانيين .. إلى الإحتلال الفرنسى ثم الإحتلال البريطانى .. فإن الظلم يستمر بمجرد أن يبدأ . إنه لا يستطيع أن يهرب ، لأن الوادى محاط بالموت من كل جانب .

وبدلا من ذلك فإنه سوف يختار الاستدارة إلى الداخل . داخله هو . إنه ، منذ انهيار امبراطوريته الأولى ، سوف يصبح إنسانا مغلقا على نفسه كما لو كان يعيش داخل زقاق مغلق . إنه محافظ ، ومتدين ، ومنعزل فى حياته الخاصة ، ويشك فى نوايا الآخرين نحوه . إن الظلم قدره ، والجنس ملهاته ، والسماء ملجؤه ، والدين حصنه ، والحياة الأخرى عزاؤه . ربما من أجل ذلك لم يعرف التاريخ حاكما صرف كل تلك الملايين وأرغم كل تلك الآلاف ، من أجل بناء مقبرة له نسميها الهرم .

مع ذلك .. ففى الحالات التى كان يتطابق فيها طموح الحكام فى مصر مع مصالحها .. كان هذا الفلاح الصغير يرتفع فورا إلى أعلى نقطة فى السماء . من هنا شهد التاريخ المصرى – طوال آلاف السنين السابقة – مرحلة طويلة من صناعة الحضارة .. ثم مرحلة أخرى يصدر فيها الحضارة .. ثم مرحلة من الاكتفاء الذاتى .. قبل أن يبدأ عصر السقوط وتراجع الحضارة .

والحضارة هنا ليست هى التكنولوجيا . فالتكنولوجيا اسم نطلقه على كيس من العدد والآلات . ولكن الحضارة هى حالة عقلية ، وهى بالتالى التى تولد منها التكنولوجيا .

وعندما بدأت الحضارة المصرية فى التدهور، كانت مصر قد أصبحت جزءا من الحضارة العربيـة/ الإسـلامية . وعندما حدثـت أول مواجهة حاسمة بـين الحضارتين – الأوربية والعربية – فإنها حسمت لمصلحة الحضارة العربية . كانت المناسبة هى الحروب الصليبية فى القرن الحادى عشر .. ولم يكن الميزان قد مال بعد ضد العرب ، وفى صالح أوربا . إن أوربا كان عليها أن تلعق جراحها وتنتظر اكتمال حضارتها هى ، قبل أن تعود إلى الشرق مرة أخرى – مبتدئة بمصر – فى القرن الثامن عشر .

❑❑❑

فى هذه المرة كان كل شيء محسوما من البداية . وأصبح عبد الرحمن الجبرتى يسجل بأوراقه فى سـنة ١٧٩٨ : «لما كان يوم الجمعة سـادس الشهر وصل الفرنسيس إلى الجسر الأسود ، فوصلوا إلى أم دينار ، فعندها اجتمع العالم العظيم من الجند والرعايا والفلاحين المجاورة بلادهم لمصر . ولكن الأجناد متنافرة قلوبهم ، منحلة عزائمهم ، مختلفة آراؤهم ، حريصـون على حياتهم وتنعمهم ورفاهيتهم ، مختالون فى ريشـهم ، مغترون بجمعهم ، محتقرون شأن عدوهم ، مرتبكون فى أرديتهم ، مغمورون فى غفلتهم . وهذا كله من أسباب ما وقع من خذلانهم وهزيمتهم . وقد كان الظن بالفرنسيس أن يأتوا من البرين ، بل أشيع فى عرض ابراهيم بك أنهم قادمون من الجهتين ، فلم يأتوا إلا من البر الغربى» .

لم يكن هذا الصدام الحاسم بين الجيش الفرنسى بقيادة نابليون ، والجيش الذى يقوده المماليك سـوى صدام بين حضارتين فى جوهره . وفى هذه المرة انتصرت الحضارة الأوربية لأن ميـزان القوى كان قد مال إلى صالحهـا فعلا قبل ذلك عندما نامت مصر اكتفاء بتاريخ مضى.. بغير أن يلاحظ أحد فى الشـرق تلك المقدمات . كان الفارق حضاريا .. مع بعض التكنولوجيا . ففى القرنين الحادى عشـر والثانى عشر كانت المواجهة بين قوة بحرية هى أوربـا .. وقوة برية هى مصر . فى حينها أحسـنت مصر تعبئة واسـتخدام تفوقها البرى لإلغـاء مـا تملكه أوربا من تفوق بحرى . وبينما طورت أوربـا من حضارتها وتكنولوجيتها لكى تعيد المواجهة مع مصر فى القرن الثامن عشر .. استمرت مصر فى المواجهة تستخدم الحصان والسيف ، مع استنزال لعنات السماء على العدو المستجد .. بينما يجيء نابليون بالحصـان والسـيف أيضا ، لكن فى صحبـة تكنولوجيا جديدة يمثلهـا المدفع . وبالطبع حسمت المواجهة لصالح المدفع .

وكان هذا الاكتشاف مذهلا ومفاجئا بحيث إن الجنود الفرنسيين هبطوا على الحكام المماليك فى مصر كما لو كانوا سحرة قادمين من كوكب آخر .

ومن هنا بالضبط بدأت صحوة مصر الحديثة .

لقد خرج الفرنسيون وجاء محمد على ، لكى يحاول تعويض الفجوة بسرعة بين مصر وأوربا . واستطاع بحسن التنظيم وبالتعبئة الرشيدة والنقل عن أوربا نفسها أن يعوض خلال فترة وجيزة الفجوة بين مصر وأوربا . وبالنتيجة نجح لفترة أن يقيم امبراطورية تغذى طموحه .. بما جعل أوربا كلها تتوحد ضده ، وضد مصر من بعده .

❑❑❑

ولأن مصر فى كل مرة كانت تأخذ من الحضارة جرعة أقل مما يجب ومتأخرة أكثر مما يجب ، فإنها لم تستطع فى تلك الفترة القصيرة التالية أن تستمر فى تعويض باقى الفجوة الحضارية الضخمة بينها وبين أوربا .. خصوصا مع القيود الفادحة التى فرضتها أوربا ضد مصر تحسبا لنهضتها من جديد ، وتنهض بها دولة قوية بالمنطقة تتصدى لأوربا فى الجولة التالية . وهكذا حسمت المواجهة من جديد بنجاح بريطانيا فى احتلال مصر فى سنة ١٨٨٢ ، ولمدة ٧٤ سنة بعدها .

ومن المثير للدهشة هنا أن مصر هذه كانت جيوشها قد وصلت ـ قبل أن تحتلها بريطانيا بثلاث سنوات فقط ـ إلى أوغندا جنوبا . هذا مثير للدهشة ، لأنه لا يحدث عادة أن تتقلص دولة من امبراطورية إلى مستعمرة فى ثلاث سنوات . ولكن هذا كان مجرد وجه واحد للمتناقضات الأخرى التى شكلت مصر ، ومن ثم شكلت المصرى .

● أحد وجوه التناقض هو بين مصر نفسها كدولة ، والمصرى كمواطن . فحيثما كان يتلاقى طموح الحاكم مع مصالح مصر ، فإنه كان يرفع من شأن مصر من غير الاستثمار بدرجة موازية فى المواطن المصرى .. تماما كما جرى فى حالة بسمارك بأوربا ، ومن بعده هتلر .

● وأحد وجوه التناقض هو أن مصر فى تلهفها على عبور الفجوة الحضارية سارعت فى الأخذ بالقشور على حساب الجوهر . إن تفوق الغرب عسكريا وماديا أعطى درجة من الهيبة لنظمه السياسية ، بحيث إننا تصورنا أن ما يصلح فى أوربا لابد أنه يصلح لنا تلقائيا . هناك برلمان وأحزاب ومساواة للمرأة . هناك نظم تأمينات وقوانين عمل وميكروجيب . إذن

نحـن كذلـك .. وهكذا . غاب من المعادلة أهم عناصرها ، وهو خلق ونشـر قاعدة تعليمية وعلمية تكون هى البنية التحتية التى تنبنى عليها كل نهضة .

● وأحد وجوه التناقض هو الرغبة الشـديدة فى الاندماج فى القرن العشـرين صاحبتها فى نفس اللحظة ، وربما بنفس الحماس ، رغبة شديدة فى العودة إلى القرن العاشر . إننا قوم أصحاب حضارة ، وتاريخنا البعيد منتصر . إذن ، فالحل هو أن نعود إلى ذلك التاريخ البعيـد ونعيـش فيه ونتقوقع داخله . الحل هو العودة إلى الماضى أو العودة إلى الذات ، أو العودة إلى التراث أو التقاليد أو أى عنوان آخر يعيدنا بسرعة إلى أمجاد أجدادنا .

❑❑❑

وهنا أيضا توجد العقدة فى أزمة مصر المعاصرة . مصر الربع الأخير من القرن العشرين . فـإذا بدأنا من النهاية فإن هذا الإرتداد النفسـى والعقلـى إلى الماضى لا يمثل علاجا لأزمة مصر الحديثة ، وإنما هروبا من مواجهتها .

أكثـر مـن ذلك .. أقول إن ماضينـا ـ مهما كان مجيدا وبراقا لأهلـه ـ لا يزكينا مطلقا لبناء الدولة العصرية . بل هو سلاسـل ثقيلة فى أقدامنا وجبل من الصدأ فى عقولنا . إن رؤيتنا لتراثنا يجب أن تكون هى رؤيتنا للمتحف الفرعونى .. رؤية تحمل من الإعتزاز بقدر ما تحمل من الانفصال .

وهـذه الكلمات بقدر ما تحمل من سـهولة بقدر ما تحمل مـن الديناميت أيضا . فمنذ عشـرينات القرن العشـرين حاول طه حسـين مثـلا أن يفحص علميا جزءا مـن تراثنا ، فاتهـم فـورا بالكفر والإلحاد والزندقة ، بل وخرجت المظاهرات تهتف ضده فى الشـوارع والخطابات من مجهولين تهدده بالقتل .

هذا إذن هو أول وجه يجب أن نحبه فى مصر ، وأول وجه يجب أن نرفضه . إن حبنا لمصر فى أزمتها المعاصرة يجب أن يعنى أولا وقبل كل شىء التخلص من هذا الانقياد الأعمى إلى الماضى .. وهذا الإيمان المضلل بأن ما كان يصلح لأجدادنا منذ ألف سنة يجب أن يصلح لنا الآن . إننا نريد أن نخوض البحر بغير أن تبتل ملابسـنا . ونحصل على مزايا حضارة بغير أن ندفع فاتورة الحساب لكى نكون منتجين فيها وليس مجرد مستوردين ومستهلكين لهـا . إن «النداهة» بمفهوم يوسـف ادريس فى قصتـه ، ومن قبله يحيى حقى فى روايته

«قنديل أم هاشـم» ، ومن قبلهما وبعدهما زكى نجيب محمود فى كتبه ، وطه حسـين فى تأملاته .. معناها أن نحسـم مرة وإلى الأبد هذا التمزق الروحى . ان مشـاعرنا نحو الحاضر يجب ألا تكون هى التحمل ولكن الجرأة .. ومع المستقبل هى التحدى وليس الاستسلام .. ومع مصر هى المشاركة وليس التفرج .. الحب اليقظ وليس العشق الأعمى .

❑❑❑

أن نحب مصر ؟

نعم . هذا هو الحل . وتلك هى المشـكلة . إنها مشـكلة لأن حب مصر فيه شـىء من الرومانسـية التى تجعلنا نقول فى قرانا إن مصر هى أم الدنيا . لا . مصر تسـتحق الحب بغير أن تكون أم الدنيا . مصر هى فقط جزء من الدنيا . إنها يمكن أن تكون هى كل دنيانا التـى تهمنـا ، بغير أن تكون هى كل دنيانا التى نعيش فيها . إن عشـقنا لها فيه شـىء مـن العمـى . ولكن حبنا لها فيه قاعدة من الاختيار .اختيار الأفكار الصحيحة والإيجابية فنؤكدها .. واختيار العناصر الضارة فنرفضها .

أحد ميادين هذا الاختيار هو الماضى السحيق الذى يجب أن نصفيه بدلا من أن نعبده.. وندرسه بدلا من أن نعود إليه . لا أحد فى الحياة يعود إلى الوراء إلا فى سن الشيخوخة . ومصر ليسـت فى حالة شـيخوخة . أن «هاركابى» المدير الأسـبق للمخابرات الإسرائيلية أصدر كتابا يقذف فيه بالكرة فى وجهنا . إنه يسترجع فى الكتاب ما لاحظه المفكر العربى الكبـير ابن خلدون ، حينمـا لاحظ أن انهيار اليهود فى الماضى يرجع إلى ضعف العصبية – روح الجماعـة – وإلى أنهـم عانوا نتيجة لذلك من المذلة والهوان حينما تركوا أنفسـهم نهبا لذكريات أمجادهم السابقة . حسنا . أن «هاركابى» يخرج لسانه من صفحات الكتاب وهو يقول : يبدو أن البندول الآن قد دار دورة كاملة . يعنى : يبدو أن العرب الآن تركوا أنفسهم نهبا لذكريات أمجادهم السابقة !

ولأن الإنسـان لا يعيبه أن يرى جزءا من عيوبه فى عيون عدوه ، فإنه لا يسـىء إلينا أن نـرى جزءا من الحقيقة فى كلمات «هاركابى» . إن فريقا كاملا من المثقفين المصريين ، بحسن نية شديدة ورغبة صادقة فى العلاج ، يتمسكون بهذا الماضى كنقطة للبداية . بداية الدراسـة كما فى حالة الدكتور محمد حسين هيكل ، أو بداية للحياة كما فى حالة عباس العقاد ، أو بداية للتصحيح كما فى حالة طه حسين .

❑❑❑

نحب مصر ؟

نعـم . هـذا هو الحل . وتلك هى المشـكلة . إنها مشـكلة لأن علينـا – كجزء من هذا الحب – أن نرفض ما قاله موشـى دايان وزير الدفاع الإسـرائيلى عقب هزيمتنا فى يونيو ١٩٦٧ : «إن العرب يعيشـون فى عالم غير حقيقـى . وهم يفعلون ذلك غالبا مثلهم كمثل الشـخص الذى يحتاج إلى الحشـيش حتى يحس أنه يعيش فـى جنات عدن . فالحقيقة بالنسـبة لهم هى الجحيم . والعلاج هو ابتلاع حبة من حبوب الكذب .. التى تعطى لهم الإحساس بالجنة» .

إن علينا أن نرفض هذا المفهوم الإسرائيلى لأن المصريين هم الذين أثبتوا عمليا كذبه من الأساس . لم يترك المصريون اسرائيل فى أوهامها تلك بعد هزيمة يونيو ١٩٦٧ سوى أسابيع قليلة ، وبعدها بدأ الجحيم المضاد . بدأ قبول التحدى والنهوض من جديد .

فـى نفـس الوقت فإن علينـا ، كجزء من حبنا لمصر ، أن نغضـب لما غضب له حافظ ابراهيم حينما قال شعرا فى لحظة انفعال عن بلده مصر :

وكم غضب الناس من قبلنا لسلب الحقوق ولم تغضبى
أمـور تمر ، وعيـش يمـر ونحن من اللهو فـى ملعب

أقول أنها شطحات شاعر فى لحظة غضب وانفعال . لكن التاريخ لا تصنعه الانفعالات . تصنعـه الحسـابات الدقيقة والعقـول اليقظة . فلنتوقف هنا مبدئيا أمـام ثلاث وقائع فى تاريخنـا القريـب ، تعكس بالضبط روح الجماعة ، أو روح الفريـق ، التى عبر عنها ابن خلدون كشرط لنهضة الأمم وقوتها .

● فى الحالة الأولى نحن أمام مصر وهى تسـتعيد بعض حقوقها المنهوبة من وحوش الغابة الدولية . حالة تأميم قناة السويس . القناة التى كان يفترض أن تكون لمصر فأصبحت مصر للقناة . وأصبح من الآمال المؤجلة لكل جيل فى مصر هو استعادة القناة . هكذا وقف جمال عبد الناصر ذات مسـاء بالإسـكندرية فى يوليو ١٩٥٦ لكى يعلن قرارا مصريا بتأميم شركة قناة السويس .

إنها قانونا وعدلا حق سيادى لمصر ، ومن قديم . لكن الجديد هنا متعدد . الجديد هو إدراك مصـر فـى حالتها هذه أن الحقوق تؤخذ غلابا وليس لمجرد أنها حقوق . والجديد

أيضا أن يؤخذ قرار التأميم بمعرفة وحسابات وتجهيزات مسبقة سرا ، ولأكثر من سنتين . من التجهيزات مثلا مبادرة مصر بالاعتراف دبلوماسيا بجمهورية الصين الشعبية .. خرقا للحصار الدولى الذى فرضته أمريكا على الصين منذ استيلاء الشيوعيين على السلطة فى بكين سنة ١٩٤٩ . والاعتراف المصرى بالصين لم يكن إعجابا بالشيوعية والشيوعيين ، ولكن تحسبا لحصار دولى متوقع ضد مصر بمجرد إقدامها على تأميم قناة السويس .

أما الجديد الآخر فهو حسن ودقة اختيار مصر لفريق من أبنائها أصحاب الخبرة ليقوموا بتنفيذ قرار التأميم . فالتحدى الواضح هنا ، بعد قرار التأميم ، هو أن تنجح مصر فعلا فى تشغيل وإدارة الملاحة فى قناة السويس . لو وقف العالم كله مع مصر حقا وعدلا .. ثم فشلت مصر عمليا فى تشغيل وإدارة قناة السويس .. فإن نفس هذا العالم كله سينقلب ضد مصر .. خصوصا وقد خرجت الوحوش الجريحة فى الغابة الدولية مهددة ومتوعدة بجعل مصر أمثولة وعبرة لكل من يتخيل من الدول الصغرى أن استعادة الحقوق المنهوبة ممكنة . ولم يكن هذا من فراغ . فقبلها بثلاث سنوات فقط كانت وحوش الغابة قد جعلت من محمد مصدق رئيس وزراء ايران ، ومن إيران كلها ، عبرة لمن يعتبر . محمد مصدق رئيس وزراء منتخب شعبيا .. وقراره بتأميم شركة البترول الإيرانية أمنية شعبية من قديم . وحينما هددت بريطانيا بقطع رقبة مصدق وايران من بعده عقابا على التأميم ذهبت حكومة إيران بقضيتها إلى محكمة العدل الدولية ، فأقرت المحكمة علنا وصراحة بحق إيران فى تأميم الشركة . لكن القانون والعدالة هما أبعد ما يمكن عن انشغالات وحوش الغابة .

وهكذا .. بخليط من التآمر والعمل السرى المشترك بين بريطانيا وأمريكا جرى تدبير انقلاب أسقط محمد مصدق وحكومته وأعيد شاه إيران الهارب إلى عرشه وعادت وحوش الغابة تنهب بترول إيران من جديد .

شىء من هذا كان يدبر لمصر عقابا لها على قيامها بتأميم قناة السويس . وفى هذه المرة تحالفت بريطانيا وفرنسا ، زائد اسرائيل ، لضرب مصر عسكريا واستعادة السيطرة على قناة السويس . الفشل كان مدويا . لكن نجاح مصر هنا يرجع لأسباب عديدة ، من أبرزها حسن التخطيط ودقة الحساب وذلك الفريق من أبنائها الذين باشروا عملية التأميم ثم التشغيل والإدارة بنفس مستوى الكفاءة الدولية .. وأفضل .

ومع أن المهندس محمود يونس وفريقه المختار لتشغيل القناة كانوا يعيشون الليل والنهار فى مواقع العمل ويتعاملون بخبرة وكفاءة ونكران للذات مع هذا التحدى الذى فرضته مصر

على أبنائها .. إلا أن كلا منهم كان يرى أنه لايفعل سوى تأدية واجبه . إن محمود يونس مثلا ، وأيا من فريقه ، لم يكتب مذكراته . وفى كل مدن القناة الثلاثة .. لن نجد حتى الآن ميدانا ، أو حتى شارع ، يحمل اسم محمود يونس أو أى من رفاقه.

● فى الحالة الثانية نحن أمام مصر أيضا وهى تخوض تحديا آخر مع أبنائها . إنه حلم إقامة سد عال جنوب أسوان يقوم بترويض نهر النيل الذى يعيث فسادا بين سنة وأخرى ، فضلا عن أنه يهدر معظم فيضانه بينما أراضى مصر تتحرق شوقا إلى مياه تتيح لمصر التوسع بشريطها الأخضر الضيق من الأراضى المزروعة .

فى هذه الحالة أيضا كانت وحوش الغابة الدولية تراوغ ، ثم ترفض صراحة ، قيام مصر ببناء السد العالى جنوب أسوان . . بالضبط لأنها تدرك أن قيام السد العالى وما سيتيحه من أراضى جديدة وكهرباء رخيصة سيصبح المقدمة الأكيدة لنهضة اقتصادية جادة فى مصر .

جاء الشروع فى بناء السد العالى مباشرة فى أعقاب نجاح مصر فى تأميم قناة السويس ، وأصبحت أنظار العالم تتطلع إلى مصر ، معظمها بإعجاب ، وبعضها بشماتة وتطلع لتحول مشروع السد من أمنية كبرى إلى فضيحة عظمى . وحينما نجحت مصر بعد سنوات فى بناء وتشغيل السد العالى كانت الأسباب متعددة . لكن أهمها من زاوية اهتمامنا هنا هو حسن اختيار مصر لذلك الفريق من أبنائها الذين يمتلكون الخبرة والمعرفة والإرادة لقبول التحدى . فريق برئاسة المهندس محمد صدقى سليمان .

ويوما بعد يوم ، وسنة بعد سنة ، كان المرء يذهب إلى جنوب أسوان ، ليجد عشرات الآلاف من المصريين يعملون ليل نهار لإنجاز الحلم الكبير ، بينما فى أعلى نقطة من الجبل توجد لافتة ضخمة مضاءة ليل نهار وتتعدل يوما بعد يوم حتى يراها أولئك الآلاف . لافتة تقول : باق من الزمن ٢٦٧٠ يوما .. ٢٦٦٩ يوما .. ٢٦٦٨ يوما ، وهكذا . وكان المرء ، لكى يقابل المهندس صدقى سليمان ويختطف بعضا من وقته ، عليه أن يذهب إليه فى الخامسة صباحا لأنه بالضبط موعد خروجه إلى مواقع العمل بين العمال والمهندسين والخبراء .

ومرة أخرى ، كان صدقى سليمان وكل فريقه لايرون فيما يفعلونه شيئا خارقا ولا استثنائيا . يرون فقط أنهم يقومون بواجبهم نحو مصر التى أحبوها وجعلتهم فى قلب

التحـــدى . هـــو أيضـــا لم يكتب مذكراته ، بغير أن نذكر أنه لايوجد فى أســـوان ميدان أو شارع باسمه .

● فى الحالة الثالثة نحن مع مصر وأبنائها حينما يتم ضبطهما معا على موجة واحدة . موجة من الحب والعطاء والتحدى . فبعد ضربة يونيو ١٩٦٧ اعتبرت اســـرائيل أنها أزالت مصر من على الخريطة لجيلين تاليين على الأقل . ولم يكن هذا من فراغ . فبعد انتصار اسرائيل كدولة مســـتجدة على الجيوش العربية فى ســـنة ١٩٤٨ تكيفت مصر الضعيفة المهزومة مع الوضع الجديد وسجلت اتفاقات الهدنة هذا التكيف من مصر وباقى الأطراف العربية .

لكن الحسابات بعد يونيو ١٩٦٧ اختلفت جذريا . وهى اختلفت بقرار مصرى واضح : لـــن نتكيف أبدا مع الهزيمة . ســـنبتلع مراراتنا ونلعـــق جراحنا ونضم صفوفنا لكى ننهض مـــن جديد . فى هـــذه المرة أصبح الجهد المطلوب مضاعفا : إنـــه جهد النهوض وقوفا من جديد .. مصحوبا فى نفس اللحظة بجهد إعادة بناء القوات المسلحة من الصفر . هذا يشبه أجراء عملية جراحية دقيقة لمريض بينما هو فى نفس اللحظة يصعد درجات السلم . وفى هذه المرة أيضا بدا واضحا إصرار وحوش الغابة الدولية على جعل حرب يونيو ١٩٦٧ هى الصفحـــة الأخـــيرة فى كتاب مصر .. بينما مصر تصر على أنها مجرد فصل عابر فى كتاب ما يزال مفتوحا .

ومن زاوية اهتمامنا هنا فإن تلك الروح من الإصرار والتحدى ، المقترنة بأقصى درجات المعرفة والخبرة . يلخصها شـــخص الفريق (الراحل) عبد المنعم رياض الذى جرى اختياره لمنصـــب رئيس أركان حرب القوات المســـلحة الجديدة .. وهو المنصب الذى يمثل بطبيعته العقل المفكر والمخطط للقوات المســـلحة . لقد قبل الرجل بالتحدى الضخم الذى أصبح فى بؤرته ، مع كل ضابط وجندى آخر فى ذلك الجيش الجديد . جيش المليون جندى .جيش الأســـلحة الجديدة والحـــرب الإلكترونية ضد عدو يتصرف كامتـــداد عضوى للدولة الأكبر والأقوى فى العالم : أمريكا .

ســـواء لطبيعة المهمة ، أو لطبيعة الشخص . فإن كل عملية إعادة بناء القوات المسلحة المصريـــة الجديدة كانت ســـر الأســـرار . فقط يتابعها المصريـــون ويتفاعلون معها من خلال أحداث وتطورات متلاحقة فى حرب اســـتنزاف باشرتها مصر ضد الإحتلال الإسرائيلى . تطورات تلاحقت منذ الشـــهر التالى مباشرة لهزيمة يونيو ١٩٦٧ حتى النجاح النهائى فى

إقامة حائط الصواريخ الشهير بمحاذاة الضفة الغربية لقناة السويس ، وهو المقدمة الحتمية للعبور تحريرا للأراضى المحتلة .

لم يكن عبد المنعم رياض موجودا حينما اكتمل بناء حائط الصواريخ هذا فى الأسبوع الأول من أغسطس ١٩٧٠ . كان قد رحل فى مارس سنة ١٩٦٩ . رحيلا مدويا فجع قلوب المصريين جميعا . فذات صباح كان عبد المنعم رياض يتفقد تطورات القتال فى المواقع المصرية بالخط الأمامى على الضفة الغربية من قناة السويس . زيارة تفقدية قام عبد المنعم رياض بالمئات منها من قبل .. سرا كالمعتاد . لكن فى ذلك اليوم من مارس ١٩٦٩ شاء القدر أن يصاب عبد المنعم رياض بقذيفة من وابل القذائف التى يمطر بها الإحتلال الإسرائيلى القوات المصرية فى جبهة قناة السويس . الإصابة كانت قاتلة للتو . وفى تشييع جثمان عبد المنعم رياض لم يكن جمال عبد الناصر فى المقدمة فقط .. كان معه الشعب المصرى بكامله ، بغير أن نقول الشعوب العربية أيضا .

الخسارة كانت فادحة . لكن بعض العزاء فيما جرى كان اكتمال المرحلة الحرجة فى إعادة بناء الجيش لخوض الحرب الحديثة . حرب هى بطبيعتها التعبير العملى عن روح الجماعة أو روح الفريق .. وتحديداً الفريق المتخصص الخبير المدرك لأهمية دخول هذا التحدى بهذا الجيش الجديد . جيش المليون مقاتل .

للحرب سياق آخر . لكن ما يعنينا هنا هو تلك الحقيقة الحاكمة التى لم تأخذ حقها من الاهتمام والدراسة . حقيقة أن مصر ، فى لحظة الشدة والمحنة والتحدى ، لم تكن ستنجح فى إقامة جيش المليون جندى هؤلاء إلا لأنها نجحت سابقا فى إقامة نظام التعليم المجانى .. حتى الجامعة . فى لحظة الشدة والمحنة والتحدى لم يكن الجيش الجديد الذى تحتاجه مصر هو مجرد زحام من الجنود ، أو زحام من الأسلحة . ماتحتاجه مصر فى تلك اللحظة الفاصلة من تاريخها كان أسلحة حديثة ، وجنود متعلمين قادرين على التفاعل مع تلك الأسلحة المتطورة الحديثة ، والإلكترونية فى معظمها . من هنا احتاجت مصر فجأة إلى مليون متعلم . ومن هنا نجحت مجانية التعليم . بعد سنوات من التراكم ، فى إسعاف بمصر بالمليون جندى .. متعلم .

فى الدولة العصرية هناك جانبان حيويان تماما فى متانة النسيج الاجتماعى : نظام التجنيد الإجبارى .. ونظام التعليم المجانى . فى التجنيد الإجبارى يدفع الأبناء ضريبة

الوطـن لمـدة محددة ، بلا تمييز وبغير اسـتثناء . وفـي التعليم المجانى يتسـاوى الغنى والفقـير ، والجنوبى مع الشـمالى ، فى الحصول على خدمة تعليميـة إجبارية توفر أيضا مفتاحـا إلى الانصهار الاجتماعى والاندماج مع المسـتقبل . أحـد وجهى العملة هنا هو أن يحب المصريون .. مصر . أما الوجه الآخر فهو أن تحب مصر أبناءها .

هذا يعيدنا من جديد إلى مشكلة .. أن نحب مصر .

❑❑❑

إن معنى أن تكون مصريا ، الآن وفى هذه اللحظة ، معناه بالضرورة هو أن نرفض أشياء كثيرة ، ونؤمن بأشياء كثيرة ، ونحلم بأشياء كثيرة .

معناه أن نرفض مثلا ذلك القدر الرومانسـى من العاطفة .. لأن تحويل مصر فى خيالنا إلى مجـرد نجوم فى السـماء وذهب فـى المياه وحرير فى ضفائر الشـعر .. يعنى أن مصر بالنسـبة لنا مفهوم غير عقلانى . ويعنى أيضا أننا لا نحس بها فى داخلنا ونحن نعمل ، ونحن نركب الأوتوبيس أو السـيارة ، ونحن نصنع الحديد والصلب . أن مصر هى شـىء عملى جدا . شىء نشترك فيه جميعا . شىء سنعبر به إلى المستقبل أو يغرق بنا جميعا فى بحار الماضى .

مصر هى أن نعمل بامتياز ، ونكتب بضمير ، ونتعلم بوعى ، ونتكلم بصدق . مصر هى كل هـذه الالتزامات العملية جدا فى حياتنـا اليومية . مصر هى أن نؤمن بأن كل القضايا الكبرى – ابتداء من الإحتلال الإسرائيلى إلى أزمة المواصلات – هى حصيلة قضايا صغرى وأدوار صغرى نقوم بها جميعا فى حياتنا اليومية . مصر هى أن نرفض التجريد فى نظرتنا إليها . إنها ليسـت نجمة فى السـماء ولا بيتا فى خيال الشـعراء . إنهـا وظيفة نؤديها بضمير ، ومهنة نمارسـها بشـرف ، وقضية نخوضها بعدل ، وفحص نمارسـه بنزاهة ، ومراجعة نقوم بها بتجرد وموضوعية .

إن علينـا أن نرفـض إذن تلك النظرة الأحاديـة للناس والحقائـق والتواريخ . إن كل جيـل يأتى ليصور لنا معاركه وكأنها الأخيرة ، ورواياته وكأنها الأعلى ، ومثالياته وكأنها النهائيـة . ليكـن . فقط بغـير أن يؤدى هذا بالضرورة إلى أن يكـذب الآباء على الأبناء . ويضحك السياسيون على الرعايا ، ويصدر القضاة الملفقون أحكامهم الغيابية . إن الحقائق

المطلقة .. مثل ان أحمد عرابى وطنى جدا أو خائن تماما .. وثورة ١٩١٩ هى خاتمة الثورات أو لا شىء على الإطلاق .. والماضى هو الخير كله أو الشر النهائى .. هى قضايا يجب أن نحسمها بعين الفحص وليس بعين التعصب .

❑❑❑

ومعنى أن تكون مصريا ـ الآن وفى هذه اللحظة ـ معناه بالضرورة ألا نخجل من فقرنا . إن المدرس المصرى فى الكويت أو السعودية أو ليبيا لا يحصل على مرتبه فى آخر الشهر لمجرد أنه أكثر فقرا .. ولكن أيضا لأنه أكثر حضارة . إن مصر لا وظيفة لها فى الشرق الأوسط إلا إذا كانت هى الأكثر حضارة . فلتكن السعودية هى كعبة الشرق ، ولبنان هى سمسار الشرق ، وسوريا هى حصن الشرق ، والسودان هى مطعم الشرق .ولكن مصر هى جامعة الشرق .

إن مصر قد لا تستطيع أن تكون أغنى فى وقت قصير . هى تستطيع لو قويت عزيمتها ، وقد استطاعت ذلك فعلا فى جيل مضى . ولكن .. إلى أن نسترد العزيمة والإرادة .. فإن مصر فى الواقع لايجب أبدا أن تتنازل عن ـ أو تفرط فى ـ وظيفتها الكبرى : إنها الأكثر تحضرا .

ولأنها كذلك ، فإن منها فقط يخرج طه حسين ومحمد عبده وعبد الله النديم ومحمد عبد الحليم عبد الله وعباس العقاد وأم كلثوم ومصطفى مشرفه وأحمد زكى وسلامه موسى ومحمود شلتوت ومحمد عبد الوهاب وأحمد لطفى السيد وأحمد شوقى .. إلخ .. إلخ .

ولأنها كذلك ، فإن هزيمة الشرق كله تبدأ من هزيمتها . وانتصاره يبدأ من انتصاراتها . وفى كل الصدامات العسكرية الكبرى التى هزت منطقتنا ـ ابتداء من روما القديمة إلى الصليبيين إلى المغول إلى الاستعمار الأوربى .. كانت المصائب الكبرى تدخل إلى المنطقة يوم تضعف مصر .

إن معنى المصرية إذن هو أنه .. وسط التليفون الذى لا حرارة فيه .. والكهرباء التى تنقطع .. والمسكن الذى لا يتوفر .. والأوتوبيس الذى لا يتوقف .. والغلاء الذى لا يرحم .. يجب أن نتمسك تماما بتفاؤلنا .. وقدرتنا على أن نبدأ البناء من جديد .. وبسواعدنا نحن قبل كرم الآخرين .

❑❑❑

وأخـيرا .. فـإن معنـى أن تكون مصريا ، الآن وفى هذه اللحظـة ، هو أن تحلم أيضا بأشياء كثيرة .

نحلـم مثـلا بأن نتفوق فى هـذا التحدى الحضارى من داخله . ليـس تفوق المتفرج ، فالمتفرج لا يصنع شـيئا سـوى أن يتفرج . ولكن تفوق المشـارك . تفوق المصرى الذى يصدأ عقلـه حينما تخونه الدولة .. ولكنه يلمـع ويبتكر ويجدد ويضيف حينما تحبه مصر . إن العقـل هنـا لم يتغير ، فالمصرى واحد فى الحالتـين . إن ظروفه فقط هى التى تتغير . إن المهندس فى السـد العالى والقبطان فى قناة السـويس والجندى فى حرب الاستنزاف أحس أن مصر تعطيه دورا لكى يلعبه .. وتحديا لكى يواجهه .. بحيث إنه كان يحقق فى سنة ما استبعده عدوه فى خمسين .

لكن فى نفس اللحظة على مصر أن تعيد اكتشـاف حقيقة أن قوتها هى بمسـتوى قوة مواطنيها .. وثروتها هى بمقدار مشاركة كل واحد من شعبها . وفى نهاية المطاف فإن مصر سبقت اليابان فى القرن التاسع عشر .. ولكن اليابان سبقت مصر فى جولة تالية .. فقط لأن تفوق اليابان جاء من داخل الحضارة وليس من الابتعاد عنها والاكتفاء بالاحتجاج ضدها .

نريد أن نحلم ، كمصريين ، بأن تسـتثمر مصر كل جيل من أبنائها فى موعده . وبأن يضيـف كل جيـل إلى انجـازات الجيل الذى سـبقه ، لا أن يعيش عالـة عليها أو يفرط فيها ، غير مسـتوعب أصلا لقدر التضحيات التى تحملها جيل سـابق وهو يسترد لمصر ، والمصريـين ، حقوقا منهوبة ، ومن وحوش الغابـة الدولية وغصبا عن إرادتها . نحلم بأن يرتفـع صوتنـا بغير صخب .. ونتفوق بغير أن ندمر .. ونعلـو بغير أن نتعصب .. ونتقدم بغير أن نحقد .

نحلم بأن يمنحنا الله القدرة على قبول الأشياء التى لا يمكننا تغييرها .. والشجاعة على تغيير الأشياء التى نستطيع تغييرها .. والحكمة لكى نعرف الفرق بين الاثنين .

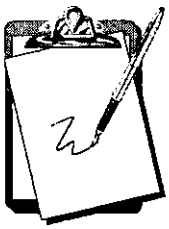

الدستور . .
بين النظام الرئاسى والنظام البرطانى

البيضة فى مصر بمليم ...(*)

علبة السجائر ماركة«العنبرول» بعشرة قروش .

الرواية المقررة على طلبة البكالوريا هى «زهراب ورستم» .

على أفندى الكسار بربرى مصر الوحيد يمثل رواية «البربرى فى الجيش».

نابغة مصر فى التمثيل يوسف بك وهبى يمثل رواية «أعين الثعبان» .

المستر سمسون رئيس النيابة المختلطة بالمنصورة يحضر حفل مدرسة المنصورة الأميرية .

حسين بك حجازى رئيس الفريق المصرى هزم بفرقته منتخب الجيش الإنجليزى فى القاهرة .

و ... نحن فى يوم ١٥ مارس سنة ١٩٢٤ .

اليوم خميس . الشمس ساطعة . البلد فى إجازة ولو أن هذا غير واضح .. فالسكان عددهم محدود – بالضبط : ١٣ مليونا و ٢١٧ ألف نسمة – هم كل السكان فى مصر فى ذلك اليوم . من بين كل مائة من السكان هناك ٢٦ يموتون بعد سنة من مولدهم . المرض وسوء التغذية سبب ذلك . الذين يعرفون القراءة والكتابة فى مصر – مجرد القراءة والكتابة – عددهم ١٩٧ فردا فى كل ألف من السكان . الصحف فى مصر محدودة . الأخبار فيها محدودة أيضا . منها تلك الأخبار المنشورة فى مقدمة هذه السطور . منها أيضا : صورة الأسد الحبشى الذى أهداه جلالة امبراطور الحبشة إلى الملك فؤاد ملك مصر ، فأمر بإرساله منحة إلى حديقة حيوانات الجيزة .

● جريدة «أخبار اليوم» : ١٩٦٨/١/١٣ .

أكرر : نحن فى ١٥ مارس سنة ١٩٢٤ . ليس الأسد الحبشى هو المنحة الوحيدة التى قدمها الملك فؤاد إلى الشعب . لقد أعطى للشعب منحة أخرى – مثل الأسد الحبشى – هى دستور أصدره بأمر ملكى منذ سنة . بالتحديد فى ١٩ ابريل سنة ١٩٢٣ ، والأمر الملكى رقمه ٤٢ . وفى هذا اليوم – ١٥ مارس سنة ١٩٢٤ – كان الملك متوجها لافتتاح البرلمان الذى أقيم تنفيذا لهذا الدستور .

الدستور يضم ١٧٠ مادة . والدستور يقرر أن مصر دولة ملكية ، والعرش فيها وراثى لأسرة محمد على ، ونظام الحكم .. برلمانى .

❑❑❑

ما هو النظام البرلمانى ؟

إنه أحد أشكال ثلاثة للأنظمة السياسية يعرفها القانون الدستورى . فهناك أولا النظام الرئاسى.. وهو يعطى الغلبة للسلطة التنفيذية (الحكومة) . وهناك ثانيا النظام البرلمانى.. وهو يساوى بين السلطات الثلاث فى الدولة : السلطة التشريعية (البرلمان).. والسلطة التنفيذية (الحكومة).. والسلطة القضائية . وفى هذا النظام تتساوى السلطات الثلاث.. فلا واحدة منها تسود الأخرى . ثم هناك – ثالثا – نظام يسمى «حكومة الجمعية».. وفيه تكون الغلبة للسلطة التشريعية .

والنظام الثالث نادر فى التطبيق . وعلى ذلك فمعظم الأنظمة السياسية المعاصرة تأخذ بواحد من اثنين : النظام الرئاسى .. أو النظام البرلمانى .

وهناك نقطتان للبحث هنا . فأولا .. هناك خصائص لكل نظام منهما . وثانيا .. هناك تاريخ طويل لمصر مع كل من النظامين . ثم ندخل فورا فى خصائص النظامين .

❑❑❑

إن أول مرة طبق فيها النظام الرئاسى كانت فى دستور الولايات المتحدة ، الذى صدر فى سنة ١٧٨٧ . ومن يومها إلى الآن مازالت الولايات المتحدة هى أبرز مثل للنظام الرئاسى .

والنظام الرئاسى له عدة خصائص محددة . فهو يقوم أولا على وجود رئيس دولة منتخب من الشعب ويجمع بين وظيفتى رئيس الدولة ورئيس الحكومة . والمقصود من ذلك

هو أن تتحقق المساواة بين السلطة التنفيذية والسلطة التشريعية .. بين الحكومة والبرلمان . فالاثنان ينتخبهما الشعب . ومن ثم فالاثنان يتعاملان معا على قدم المساواة . هذه المساواة نظرية .. لأن التطبيق يثبت بعد ذلك رجحان كفة رئيس الجمهورية فى مواجهة السلطة التشريعية كما حدث فى الولايات المتحدة .

والصفة الثانية للنظام الرئاسى هى أنه يقوم على توزيع الاختصاصات على أساس الفصل بين السلطات التشريعية والتنفيذية والقضائية . فرئيس الدولة ينتخبه الشعب مباشرة .. وهو الذى يعين وزراءه ويقيلهم .. وهم مسئولون أمامه عن أعمالهم .. وليس لهم سوى تنفيذ سياسة الرئيس . ويجوز له أن يقيلهم إذا لم يفعلوا ذلك .

وفى النظام الرئاسى أيضا لايوجد مجلس للوزراء . فما دام رئيس الجمهورية المنتخب من الشعب هو صاحب السياسة التنفيذية العليا ، فليس هناك محل لأن يكون معه مجلس وزراء مسئول أمام البرلمان أو أحد مجلسيه .

وفى النظام الرئاسى كذلك تنفصل السلطة التنفيذية عن السلطة التشريعية . والسلطة التشريعية فى الولايات المتحدة مثلا مكونة من مجلسين : مجلس النواب ، ومجلس الشيوخ . وليس للسلطة التنفيذية – بناء على الدستور الأمريكى – أن تقترح القوانين . فالتشريع من اختصاص السلطة التشريعية وحدها .

ونجد فى التطبيق الأمريكى للنظام الرئاسى أيضا أن السلطة القضائية هى الأخرى منفصلة عن السلطتين التنفيذية والتشريعية .. فالقضاة يتولون وظائفهم عن طريق الانتخاب .

وأول ما نلاحظه على النظام الرئاسى ـ فى نموذجه الأمريكى على الأقل – هو أنه يعطى سلطات واسعة لرئيس الدولة على حساب السلطة التشريعية .هذه الظاهرة لها أسباب .

أولا : أن واضعى الدستور الأمريكى فى سنة ١٧٨٧ لاحظوا تعسف البرلمان الإنجليزى ضدهم عندما كانت تستعمرهم انجلترا .. فأرادوا بالتالى عند وضع دستورهم أن يحدوا من سلطة البرلمان .

ثانيا : أن رئيس الدولة فى الدستور الأمريكى ينتخب كل أربع سنوات . وعندما ينتخبه الشعب فإنما ينتخبه بناء على برنامج محدد يعرضه الرئيس المرشح . فإذا لم ينفذ البرنامج بعد انتخابه فإن الشعب يملك أن يسقطه فى الإنتخابات التالية .

هـذا إذن دفع واضعى الدستور الأمريكى إلى تقوية سلطة رئيس الدولة فى مواجهة السلطة التشريعية . والذى حدث فى التطبيق هو أن كفة رئيس الدولة رجحت فى الميزان.. أكثر من كفة سلطة الشعب فى إلزامه ببرنامجه . السبب ، كما يقول هارولد لاسكى ، هو «أن من الأمور المعروفة لنا جميعا أن الحملة الإنتخابية هى عبارة عن أربعة أشهر من الفساد» .

وفى تلك الحالة تتحول عملية الانتخاب الشعبية إلى .. توقيع على بياض .. يقدمه الشعب إلى الرئيس المنتخب . فالشعب يعطى توقيعه مقدما دون أن يعرف بالضبط .. ماهى الالتزامات التى سيتحملها .

ومع ذلك فنحن نلاحظ أن بعض فقهاء القانون الدستورى فى العالم يبدون إعجابهم بالنظام الرئاسى المطبق فى الولايات المتحدة . إن السبب فى ذلك هو ما يتمتع به النظام الرئاسى هناك من الإستقرار .. وهو أمر تفتقر إليه أنظمة برلمانية كثيرة .

ولكن هذا الرأى عليه ردود كثيرة .. وهى أيضا ردرد يقدمها أساتذة آخرون فى القانون الدستورى .

فأولا : أن النظام الرئاسى الأمريكى لا يحتكر وحده صفة الاستقرار . هناك نظم برلمانية أخرى مستقرة .. كانجلترا والسويد وهولندا والدانمرك .

وثانيا : أن الاستقرار السياسى لا قيمة له إذا لم يصاحبه استقرار إدارى واستقرار اقتصادى . والجهاز الإدارى فى أمريكا يعانى من .. نظام الغنائم . وهو نظام تعيين كبار الموظفين بناء على حزبهم السياسى ، وليس بناء على كفاءتهم وحدها .

ثالثا : إن كثيرا من الدول التى اقتبست النظام الرئاسى الأمريكى .. تحولت فيها السلطات الواسعة لرئيس الجمهورية إلى سلطات ديكتاتورية .. وهذا واضح فى كثير من جمهوريات أمريكا اللاتينية .

رابعا : إن توسيع سلطة الرئيس فى النظام الأمريكى يقابله أنه لا يملك سلطة حل المجلس النيابى . ويقابله أيضا أن مجلس الشيوخ يشترك مع الرئيس فى بعض اختصاصاته الهامة .. كتعيين الوزراء والسفراء والقناصل وقضاة المحكمة العليا وكبار الموظفين . فالدستور الأمريكى يشترط موافقة مجلس الشيوخ على تعيينهم . صحيح أن

العــرف هناك جرى على ألا يعترض مجلس الشــيوخ على اختيــارات الرئيس .. من باب المجاملة .. ولكنه دستوريا يملك ذلك . وقد اعترض فعلا فى ست مرات .

وعمومــا .. فقبــل أن نــترك النظام الرئاســى .. علينــا أن نلاحظ أنه يتميــز بأمرين أساسيين :

فأولا : الحكومة غير مسئولة سياسيا أمام البرلمان .. بعكس النظام البرلمانى .

وثانيا : أن رئيس الدولة هو نفسه رئيس الحكومة .

هذا إذن هو النظام الرئاسى وأشهر تطبيق له . إنه يعتمد على وجود انفصال شبه مطلق بين الســلطات الرئيســية الثلاث فى الدولة : التنفيذية والتشــريعية والقضائية . ورئيس الدولة هو أيضا رئيس الحكومة . وهو ينتخب مباشرة من الشعب .. وبالتالى فهو فى مركز قوى مواجه للبرلمان .

❑❑❑

ولكــن النظــام البرلمانى يختلف عن ذلك .. وهو النظام الســائد فى أغلب دول العالم . وهو يطبق فى دولة ملكية .. أو فى دولة جمهورية . ولكن له خصائص واحدة فى كل من الدول الملكية والدول الجمهورية .

وللنظام البرلمانى خصائص محددة هو الآخر . فقواعده الأساســية تنحصر فى مجالات ثلاثة هى :

- برلمان منتخب .
- رئيس الدولة .
- الوزارة .

فبالنســبة للبرلمان .. نجد أن وظيفته فى النظام الرئاســى الأمريكى مثلا هى التشــريع فقط . أما فى النظام البرلمانى فوظيفة البرلمان تزيد عن مجرد التشريع . إنها تشمل مراقبة الحكومة (الســلطة التنفيذية) ومحاسبتها عن أعمالها وإسقاطها فى حالة الضرورة . ومن ثــم .. ففــى النظام البرلمانى يكــون للبرلمان ثلاث وظائف : التشــريع .. وإقرار الضرائب والرسوم .. ومراقبة الحكومة ومحاسبتها وسحب الثقة منها .

هذا بالنسبة للبرلمان .

أمـا بالنسـبة لرئيـس الدولة .. ففى النظـام البرلمانى لايكون رئيـس الدولة هو رئيس الحكومة . فإذا كانت الدولة ملكية فرئيس الدولة هو الملك . وإذا كانت جمهورية فرئيسها هو رئيس الجمهورية . وفى الحالتين يكون رئيس الحكومة هو رئيس الوزراء .

ويتميز النظام البرلمانى أيضا بأن رئيس الدولة غير مسئول أمام البرلمان .

ولكن أعمال الدولة تتطلب وجود شـخص مسـئول يمكن محاسـبته . ولذلك فالوزراء هم المسـئولون سياسـيا أمام البرلمان عن أعمال الملك مثلا .. ورئيس الحكومة – والوزراء – مسئولون عن أعمالهم أمام البرلمان .

وليس معنى ذلك أن رئيس الدولة فى النظام البرلمانى ليسـت لديه سـلطات . لا . أن لديه سلطة تعيين وعزل الوزراء . ولديه سلطة حل البرلمان ، ما دام البرلمان من حقه سحب الثقة بالحكومة .

أمـا بالنسـبة للوزارة فـى النظام البرلمانى فهى مسـئولة تضامنيا عن سياسـتها أمام البرلمان . والوزراء مسـئولون فرديا أيضا أمام البرلمان . والوزارة عليها أن تسـتقيل فورا إذا سحب منها البرلمان ثقته .

والمسـئولية الجماعيـة التضامنية للوزارة هى أهم الخصائص المميـزة للنظام البرلمانى . وينفرد النظام البرلمانى وحده بوجود هذه المسـئولية التضامنية للوزراء فى أى دسـتور لأى دولة يجعل النظام السياسى القائم فى ظل هذا الدستور نظاما برلمانيا .

وإلى جانـب ذلـك يتميز النظـام بـازدواج الجهاز التنفيـذى . فهناك رئيس الدولة ، وهناك رئيس الحكومة . الأول غير مسـئول عن أعماله كما سـبق القول . والثانى يرأس هيئة جماعية هى مجلس الوزراء .. الذى يكون مسـئولا عن وضع السياسـة العامة للحكومة ، ويسأل أعضاؤها جميعا بالتضامن عن تلك السياسة العامة .

والنظام البرلمانى لا يفصل تماما بين السلطات كما يحدث فى النظام الرئاسى .

والنظام البرلمانى نشأ أصلا فى انجلترا . ويسميه الإنجليز «حكومة الوزارة» نظرا لأهمية الدور الذى تلعبه الوزارة فى هذا النظام .

وقد عرفت انجلترا هذا النظام فى القرن التاسع عشر لأول مرة . ومن يومها وهذا النظام ينتشـر فى العـالم ويتطور . إلا أنه عاد مرة أخرى وتعرض لموجة انحسـار جديدة . وفى

الدول التى تطبق النظام البرلمانى فى الوقت الحاضر .. فإن الشكل الذى يطبق به ليس هو الشكل التقليدى الذى نشأ فى الأصل .

❑❑❑

ونعود إلى مصر .

لقد عرفنا خصائص كل من النظامين .. الرئاسى والبرلمانى . والسؤال هو : أى هذين النظامين أخذت به الدساتير المصرية ؟

أن الإجابة على هذا السؤال تستدعى الرجوع إلى الدساتير التى صدرت بمصر ، وظروف أصدارها .

ففى سنة ١٨٣٧ أصدر محمد على قانونا أساسيا يعرف بقانون «السياستنامة» .. نظم بمقتضاه أمور الحكومة فى مصر ، ووضعها فى سبعة دواوين تمثل السلطة التنفيذية .. وبجانبها عدة مجالس .

إلا أن هذه المجالس لم تكن سوى مجالس استشارية لرغبات الوالى .. مثلما أصبحت الدواوين جهات تنفيذية لرغبات الوالى .

وقد استمرت الصفة الفردية المطلقة تطبع نظام الحكم فى مصر بعد وفاة محمد على .. فاستمرت فى عهود ابراهيم وعباس وسعيد .. إلى أن جاء عهد الخديو إسماعيل .

❑❑❑

ففى ٢٢ أكتوبر سنة ١٨٦٦ أصدر الخديو إسماعيل لائحة بإنشاء مجلس شورى النواب .. وهو أول مجلس نيابى يتكون فى مصر . ولائحة إنشائه تتكون من ١٨ مادة ، بالإضافة إلى لائحة أخرى من ٦١ مادة تعرف باسم «اللائحة النظامية» .. وهى بمثابة لائحة داخلية للمجلس .

ولم يتمتع مجلس شورى النواب بأية سلطات . فالبند الأول من اللائحة الأساسية ينص على أن «تأسيس هذا المجلس مبنى على المداولة فى المنافع الداخلية والتصورات التى تراها الحكومة أنها من خصائص المجلس ، ليصير المذاكرة وإعطاء الرأى عنها وعرض جميع ذلك للحضرة الخديوية» .

ويرى فقهاء القانون الدستورى أن مجلس شورى النواب لايمكن اعتباره مجلسا نيابيا بالمعنى القانونى السليم .. سواء كان ذلك من ناحية ممارسة حق الانتخاب الذى قصر فقط

على مشـايخ البلاد فى الأقاليم وعلى وجوه وأعيان مدن القاهرة والإسـكندرية ودمياط دون بقية أفراد الشـعب .. أو من ناحية اختصاصه .. إذ كان مجرد مجلس استشارى لا يتمتع بسلطات فعلية أصلية .

وقـد أصدر اسماعيل أيضا أمرا كتابيا فى ٢٨ لأغسـطس سـنة ١٨٧٨ بإنشـاء مجلس النظار . وصدر الأمر إلى نوبار باشـا لتكليفه بتأليف هذه الوزارة .. التى يشير إليها غالبية الفقه المصرى باعتبارها أساس نشأة نظام الوزارة المسئولة فى مصر .

وسرعان ما أدت الأزمة المالية بمصر والتدخل الأجنبى فى شئونها إلى تدهور الأوضاع .. فبدأ مجلس شورى النواب ينادى بضرورة محاسبة الوزارة عن تصرفاتها . ولذلك استصدر الخديو مرسوما بفض المجلس . وكان الأعضاء يتحسبون لذلك .. فقرروا عدم الإذعان لرغبة الخديو .. وأعدوا عريضة للخديو فى ٣ ابريل سـنة ١٨٧٩ عرفت باسم«اللائحة الوطنية». لقـد طالب النواب فى العريضة بتعديل نظام مجلس شـورى النـواب وتحويله إلى مجلس نيابى حقيقى تكون الوزارة مسئولة أمامه .

ونتيجة لذلك قام شـريف باشا بتأليف وزارة وطنية اسـتبعد منها الوزيرين الأجنبيين المفروضين على مصر . وتقدم فى ١٧ مايو سـنة ١٨٧٩ بمشـروع لدسـتور جديد مبنى على الأسس الديموقراطية الصحيحة .

ولم يصدر هذا الدستور لأن قرار عزل الخديو صدر من السلطان التركى (حيث كانت مصر ما تزال ولاية تابعة له) فى ٢٦ يونيو سنة ١٨٧٩ .. وتولى الحكم من بعده ابنه توفيق .

ولكن من المفيد أن نعلم – من زاوية اهتمامنا هنا – أن مشـروع دسـتور سـنة ١٨٧٩ قد أخذ بالنظام النيابى كاملا .. فهو ينص على وجود برلمان منتخب شعبيا .. وعلى أن عضو البرلمان يمثل الأمة كلها .. وعلى استقلال أعضاء البرلمان عن الناخبين .. وعلى مدة محددة للعضوية .. واختصاصات محددة للاشـتراك مع الحكومة فى السلطة . لقد أعطى لمجلس النواب سلطة إقرار القوانين قبل التصديق عليها من الخديو . ونص على مسئولية «مجلس النظـار» أمام مجلس النواب . بل ونصت المـادة ٤٣ منه على أن«النظار ملزمون بالمجاوبة عن كل ما يسألون فيه من مجلس النواب» .

كذلك نص مشروع الدستور هذا فى المادة ١١ على أنه : «إذا حصل خلاف بين مجلس النواب ومجلس النظار وأصر كل على رأيه بعد تكرار المخابرة وبيان الأسـباب ولم تستعف

النظـارة .. فللحضرة الخديوية أن تأمر بفض مجلـس النواب وتجديد انتخاب أعضائه ، على شرط ألا تتجاوز مدة الإنتخاب أربعة أشهر من يوم انفضاضه إلى يوم اجتماعه...».

ولم يصدر هذا الدستور بسبب تعيين خديو جديد لمصر هو توفيق . وعلى هذا فإن الحكم فى مصر اسـتمر حتى تلك الفترة حكما فرديا مطلقا مكبلا بالتدخل الأجنبى فى الشـئون الداخلية لمصر .

ولكن حدث فى ٩ سـبتمبر سـنة ١٨٨١ أن رفع الثوار برئاسة زعيم الثورة أحمد عرابى مطالبهـم إلى الخديـو توفيق . وتحت ضغط الثورة اضطر توفيق بعد مماطلات عديدة إلى أن يصدر دستورا فى ٧ فبراير سنة ١٨٨٢ .

كان هذا الدسـتور يعبر عن إرادة الشـعب كما ظهرت فى مشروع دستور سنة ١٨٧٩ . والإسم التاريخى لهذا الدستور هو «اللائحة الأساسية» . ولكنه برغم ذلك يعتبر من الوجهة القانونية دسـتورا بالمعنى الكامل لهذه الكلمة . وهو يعتبر أول دسـتور فى مصر يقيم نظاما ديموقراطيا صحيحا .

وقـد أخذ هذا الدسـتور بالنظام النيابـى (البرلمانى) . فهو يقرر وجـود مجلس نواب منتخب من الشـعب . وكل نائب يعتبر «وكيلا عن عموم أهالى القطر المصرى لا عن الجهة التى انتخبته فقط» . ومدة العضوية خمس سـنوات .. وللنواب «مطلق الحرية فى إجراء وظائفهم ، وليسوا مرتبطين بأوامر أو تعليمات تصدر لهم تخل باستقلال آرائهم ، ولا بوعد أو وعيد يحصل إليهم» . والدسـتور يشـترط موافقة المجلس على مشـروعات القوانين قبل التصديق عليها من الخديو . وله حق إقرار الميزانية . ولا يجوز فرض ضرائب أو رسـوم أو عوائد إلا بمقتضى قانون يقره المجلس .

وأخذ الدسـتور أيضا بمبدأ المسـئولية التضامنيـة للوزارة . فـ : «النظـار متكافلون فى المسئولية أمام مجلس النواب عن كل أمر يتقرر بمجلس النظار ويترتب عليه إخلال بالقوانين واللوائح المرعية الإجراء» . و : «كل من النظار مسئول .. عن إجراءاته المتعلقة بوظيفته» .

أما الخديو فهو لا يتمتع بسلطة فعلية .. ولذلك فهو غير مسئول أمام مجلس النواب .

❑❑❑

فهذا الدسـتور قد قرر إذن الأخذ بالنظام البرلمانى . هذا النظام الذى يقوم على أسـاس عدم مسـئولية رئيس الدولة ، ووجود مجلس للوزراء تتقرر مسـئوليته التضامنية والمسئولية

الفردية لكل وزير منه . وأخيرا على حق الخديو فى حل المجلس النيابى كسلاح مضاد للمسئولية الوزارية .

ولكن الحياة البرلمانية فى ظل هذا الدستور لم تستمر إلا عدة أشهر قليلة . فقد رأت انجلترا وفرنسا أن البلاد قد سادها حكم دستورى يقوم على نظام نيابى برلمانى صحيح . وهكذا أرسلتا إلى خديو مصر بمذكرة مشتركة تحتمان فيها إسقاط الوزارة .

وبالفعل قدم رئيس الوزارة (محمود سامى البارودى) استقالة الوزارة إلى الخديو .. محملا إياه تبعة تدخل الدولتين الأجنبيتين فى شئون البلاد . وتطور الموقف سريعا بتحالف الخديو مع الإنجليز .. الذين سارعوا باحتلال مصر .

وهكذا انحصرت فترة العمل بالدستور ما بين ٧ فبراير سنة ١٨٨٢ و١٤ سبتمبر من السنة نفسها – تاريخ احتلال الإنجليز للقاهرة .

وسرعان ما قام الإنجليز بإلغاء دستور ١٨٨٢ . وصدر بدلا منه «القانون النظامى» فى أول مايو سنة ١٨٨٣ فأعاد الحكم المطلق مرة أخرى .. وأعطى السلطة فى هذه المرة للمحتل الإنجليزى . وكان «القانون النظامى» يقيم حكما رجعيا مطلقا ويعطى الطابع الاستشارى البحت لعدة مجالس صورية .. بعيدة تماما عن النظام النيابى الصحيح .

❑❑❑

ولكن الوعى الوطنى فى مصر هب ثانية بزعامة مصطفى كامل . وتحت ضغط تلك الحركة الوطنية وسعيا لتهدئتها تقرر العدول عن «القانون النظامى» لسنة ١٨٨٣ وإلغاء نظام مجلس شورى القوانين والجمعية العمومية . وحل محلهما نظام الجمعية التشريعية بمقتضى القانون النظامى رقم ٢٩ لسنة ١٩١٣ .

وقد نص ذلك النظام على إنشاء جمعية تشريعية فى البلاد تتكون من عدد من الأعضاء ، جزء منهم بالتعيين وجزء آخر بالإنتخاب . مدة العضوية للجميع ست سنوات . ويجوز حل الجمعية التشريعية . واختصاصاتها كلها استشارية غير ملزمة إلا بالنسبة لفرض الضرائب والرسوم . ويحظر على الجمعية – بحكم القانون – أن تنظر أو تبدى الرأى فى مسائل معينة .. منها العلاقات الدولية بين مصر والدول الأجنبية .. ومخصصات الخديو . ولأعضائها حق توجيه أى سؤال للوزراء ، ولكن الوزراء أحرار فى الإجابة أو عدم الإجابة .

فقانون سنة ١٩١٣ هو قاعدة للحكم المطلق بوضوح . وعموما فقد مارست تلك الجمعية التشريعية عملها خمسة أشهر فقط . بعدها قامت الحرب العالمية الأولى . ثم فرضت بريطانيا حمايتها على مصر . وأصبح حسين كامل سلطانا للبلاد ، فأجل انعقاد الجمعية لأجل غير مسمى .

□□□

ونقفز الآن مباشرة إلى سنة ١٩٢٣ .. فهى السنة التى صدر فيها الأمر الملكى رقم ٤٢ من الملك فؤاد بإصدار الدستور .

ونحن لا نناقش هنا الظروف التى صدر فيها دستور سنة ١٩٢٣ . هذا موضوع آخر . فالمهم إذن أن دستور سنة ١٩٢٣ يضم ١٧٠ مادة . وقد أخذ بالنظام البرلمانى كشكل للحكم فى مصر . وقرر أن السلطة التشريعية تكون فى يد برلمان مكون من مجلسين ، هما مجلس النواب ومجلس الشيوخ . وقرر مسئولية الوزراء أمام مجلس النواب (مادة ٦١) .. وأعطى للملك فى مقابل ذلك الحق فى حل مجلس النواب (المادتان ٨٨ و ٨٩) .. والحق فى اقتراح القوانين .. والملك هو الذى يصدق على القوانين التى يوافق عليها البرلمان .

فدستور سنة ١٩٢٣ أخذ بكل أركان النظام البرلمانى : فرئيس الدولة (الملك) غير مسئول سياسيا . إنه يسود ولا يحكم . وهناك مجلس للوزراء متضامن فى المسئولية . والوزارة مسئولة سياسيا أمام البرلمان . وللملك حق وسلطة حل البرلمان .

ونلاحظ هنا أن البرلمان فى مصر فى ظل دستور سنة ١٩٢٣ كثيرا ما كان يعجز عن القيام بدور فعال . فقد وافق البرلمان على قوانين منافية لمبادئ الحرية كانت قد صدرت قبل وضع دستور سنة ١٩٢٣ ولكنها مع ذلك ظلت نافذة بعده ولم يقم البرلمان بإلغائها .

وفى ظل دستور سنة ١٩٢٣ أيضا شهدنا برلمانا فى مصر يقول رئيسه للأعضاء : «هل تريدون أن تسمعوا هذا المعارض ؟» .. ثم يمنعه من الكلام .

كان هذا يحدث فى ظل الدستور . مع أن جوهر الديموقراطية فى رأى الفقهاء الدستوريين هو : «.. إنها تضمن حرية النقد وتتيح فرصة المقاومة التى يبديها الفكر الحر لكل قاعدة أو نظام قبل الخضوع لهما» .

وعموما ، فقد ألغى دستور سنة ١٩٢٣ .. وصدر دستور آخر فى مصر فى ٢٢ أكتوبر سنة ١٩٣٠ . وقد أخذ الدستور الجديد مثل سابقه بالنظام البرلمانى ، مع توسيع سلطات

الملك على حساب البرلمان . ثم ألغى هذا الدستور فى ١٢ ديسمبر سنة ١٩٣٥ وأعيد العمل بدستور سنة ١٩٢٣ .

وظل دستور ١٩٢٣ قائما فى التطبيق إلى قيام ثورة ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢ ، فأعلنت إلغاءه فى ٢٠ ديسمبر سنة ١٩٥٢ ، وبدأت اجراءات وضع دستور جديد .. تم إعلانه فعلا فى ١٦ يناير سنة ١٩٥٦ .

❑❑❑

وبصدور دستور سنة ١٩٥٦ بدأت مرحلة جديدة فى الحياة البرلمانية فى مصر . فقد عكس هذا الدستور التطورات الجذرية التى شهدتها الحياة السياسية فى مصر من ناحية.. وعلاقة الحاكم بالشعب من ناحية أخرى .

فدستور ١٩٥٦ لم يكن منحة من الحاكم إلى الشعب كما كان دستورى ١٩٢٣ و١٩٣٠ . أن مقدمته تبدأ بـ «نحن الشعب المصرى» بدلا من «نحن ملك مصر» . وهو من ناحية أخرى أول دستور يصدر فى مصر فى ظل النظام الجمهورى الذى أعلنته الثورة . وقد تميز دستور ١٩٥٦ بنواح كثيرة يختلف فيها جذريا عن الدساتير التى سبق العمل بها فى مصر .

ولكن السؤال الذى نناقشه هنا هو : هل أخذ دستور ١٩٥٦ بالنظام البرلمانى ، أم بالنظام الرئاسى ؟

الحقيقة أن دستور سنة ١٩٥٦ أخذ بجانب من مظاهر النظام البرلمانى ، وجانب من مظاهر النظام الرئاسى . فمن النظام البرلمانى قرر الدستور حق أعضاء مجلس الأمة (البرلمان) فى توجيه أسئلة واستجوابات للوزراء . وقررت المادة ١١٣ من الدستور المسئولية الفردية للوزراء أمام مجلس الأمة . ومقابل ذلك فالسلطة التنفيذية (رئيس الجمهورية) هى التى تدعو البرلمان إلى الانعقاد وتفض دورة انعقاده . ولرئيس الجمهورية حق اقتراح القوانين والاعتراض عليها وإصدارها .. وله حق حل مجلس الأمة .

أما بالنسبة لمظاهر النظام الرئاسى فقد قرر دستور ١٩٥٦ أن يجمع بين صفتى رئيس الدولة ورئيس الحكومة فى شخص واحد هو رئيس الجمهورية . والتعبير القانونى لفقهاء القانون الدستورى هو : أن دستور ١٩٥٦ أخذ بنظام برلمانى ناقص .. وأخذ بأحد مظاهر النظام الرئاسى الذى يجمع بين صفتى رئيس الدولة ورئيس الحكومة فى شخص واحد .

وانتقلت الحياة النيابية بعد ذلك إلى مرحلة جديدة بصدور دستور جديد ، هو الدستور المؤقت الذى أعلن فى الخامس من مارس سنة ١٩٥٨ عقب قيام الوحدة بين مصر وسوريا .

ومن وجهة اهتمامنا هنا فإن دستور ١٩٥٨ أخذ بالنظام الرئاسى المطعم ببعض مظاهر النظام البرلمانى مثلما حدث فى دستور ١٩٥٦ . وقد حدث نفس الشىء تقريبا فى الدستور التالى ، وهو الدستور المؤقت الصادر فى سنة ١٩٦٤ .

❑❑❑

.. ثم ماذا ؟

أن كل النظم السياسية – بما فيها النظامان الرئاسى والبرلمانى – تصب فى النهاية فى مجرى واحد هو : تحقيق درجة أكبر من الديموقراطية .

إن كلمة الديموقراطية فى العصر الحديث قد اكتسبت معانى جديدة لم يعرفها الإنسان فى الأزمنة القديمة . فمثلا ، كان معنى الحرية فى الأزمنة القديمة يقتصر فقط على الحرية السياسية . فعلى الرغم من أن المدن اليونانية القديمة قبل الفى سنة قد عاشت فى ظل نظام ديموقراطى مباشر .. إلا أنها لم تعرف الصورة المعاصرة للحرية . كان يصح مثلا نفى أى فرد بدون محاكمة .. بل ودون أن يتهم أصلا بارتكاب جريمة محددة . وكثير من حكومات المدن اليونانية القديمة كانت تحرم على الإنسان أن يبقى أعزب . وكان القانون فى اسبارطة مثلا يقرر للنساء نظام تسريحة الشعر .

وفى إحدى المواقع الحربية هزمت اسبارطة . فقررت الحكومة أنه يجب على أهالى الموتى أن يظهروا بوجوه ضاحكة مستبشرة .. وأن الأم التى ينجو ابنها من الموت .. عليها أن تلاقيه باكية !

إلى تلك الدرجة إذن كانت الحريات الشخصية ضيقة .. أو مختفية !

ولكن العصر الحديث يشهد توسيعا مستمرا لمفهوم الحرية . والنظم السياسية الحديثة ما هى إلا وجهات نظر مختلفة لضمان الحرية . ومن بين هذه النظم طبعا النظامان البرلمانى والرئاسى .

❑❑❑

والسؤال الآن من وجهة اهتمامنا هنا هو : أيهما أفضل من الآخر .. النظام الرئاسى .. أو النظام البرلمانى ؟

والسؤال بهذا الشكل مضلل .

فلا يوجد نظام أحسن أو أسوأ من الآخر . فأحيانا يكون النظام موجودا على الورق .. مختفيا من الواقع . إن التطبيق إذن هو المقياس الحقيقى لكفاءة كل من النظامين . والبرلمان فى الحالتين يستطيع أن يمارس دورا فعالا .. أو لا يمارسه .

فالحرية – كما يقول مونتسكيو – لن تكون فى أمان من الاعتداء عليها إذا كانت هيئة من الهيئات تجمع فى قبضة يدها سلطة كبيرة ، حيث تستطيع أن تفرض إرادتها دون أن تجد أمامها هيئة أخرى تمنعها من الخطأ .

وكل نظام سياسى لابد أن يكون فيه – بشكل ما – فرامل .. تمنع هذا الخطأ .

ولهذا السبب فإن المؤرخين يعتبرون أن التطبيق العملى ، وليس مجرد نصوص الدستور ، هو المقياس .. ويعتبرون أن البرلمان هو .. دفتر يوميات يسجلون منه التاريخ الحقيقى لكل مجتمع .

و ...

أحيانا يكون دفتر اليوميات هذا مليئا بمساحات بيضاء كثيرة !

obeikandl.com

الأحزاب السياسية : لماذا .. وكيف ؟

هل الحزب هو مجرد «مجموعة من الناس يؤمنون بنفس النظرية السياسية» كما يقول علماء السياسة ؟

هل الحزب هو «مجموعة من الناس تحاول أن يفوز مرشحون عنها فى الإنتخابات .. بهدف تولى المناصب العامة» كما تقول دوائر المعارف ؟

هل الحزب هو مجرد «الرأى المنظم» .. كما يقول خبراء الإعلام ؟

ثم : لماذا يوجد الحزب أصلا ؟

إن الأحزاب السياسية ظلت سيئة السمعة حتى وقت قريب ، وفى بلاد عريقة . فى القرن الثامن عشر مثلا ، كان الزعيم الأمريكى جورج واشنطون يحذر فى خطابه الوداعى من «التأثيرات الضارة للروح الحزبية بصفة عامة».

.. وحتى فى القرن العشرين ، مازال مألوفا حتى الآن أن نسمع قطاعا كبيرا من الناس ، وفى بلاد عديدة ، يتحدثون عن الأحزاب باحتقار شديد . فى ألمانيا الغربية مثلا ، حيث لم يكن للأحزاب السياسية نفس الجذور العميقة والمحبة العاطفية التى لها فى الولايات المتحدة وبريطانيا ، ما زال كثيرون من الألمان يفخرون بأنهم «فوق الأحزاب». نفس الشىء فى اليابان ، حيث المواطن العادى ينظر إلى الزعامات الحزبية بكثير من الشك وقليل من الإطمئنان . وفى الهند (أيام نهرو) كانت هناك أصوات غاضبة ومرتفعة ترى أن الأحزاب لا ضرورة لها ولا جدوى منها .

● جريدة «أخبار اليوم» : ١٩٧٦/١١/١٧ .

إذن .. لماذا الأحزاب ؟

إننـــا لو تركنا خصوم الأحزاب جانبا ، فســوف تكون الإجابة هى : إن الأحزاب هى وسيلة إلى الديموقراطية .

وما هى الديموقراطية ؟

إن أبسط تعريف للديموقراطية حتى الآن هو : إنها نظام يقوم فيه المحكومون باختيار من يحكمهم ، عن طريق الإنتخابات الحرة والمفتوحة .

هنا بالضبط تبدأ ضرورة الأحزاب .

فمــع اتجاه الحياة الحديثــة إلى التعقد ، ومع اتجاه المجتمع الحديث إلى الضخامة ، أصبحــت إمكانيات الفرد الواحد فى مواجهة النظام السياســى الحاكم تضعف وتضعف . إن هذا الشــخص الواحد أصبح يكتشــف أنه لا يســتطيع وحده أن يتحكم فى القرارات الكــبرى التى تتخذها حكومتــه بعيدا عنه ، ولكنها يمكن أن تمس صميم حياته اليومية . إن الحكومــة تقــول دائما إنها تتصرف لمصلحته – فكل حكومة تقول ذلك – ولكن من أين للحكومة أن تعرف .. حقا وعدلا .. مصلحته ؟

مــن هنــا ظهر الحزب ليمــارس وظيفة محددة ، هــى إعطاء رجل الشــارع صوتا مؤثرا فى السياسات الكبرى لبلده . إن الفرد بمفرده لا يستطيع أن يؤثر . ولكنه لو تجمع مع مليون آخر ، مــع مليونــين آخرين ، واختاروا عنهم نوابا دائمين .. يعبرون عن مصالحهم خارج الســلطة .. وينفذون مصالحهم فعلا داخل السلطة .. فإن الوظيفة تكون قد تمت .. والمهمة أنجزت .

أن الأحــزاب بــدأت إذن مع بداية عصــر الجماهير الكبيرة فى السياســة . وإذا كان عمر الأحزاب السياســية – كمنظمات – يقترب الآن من قرنين من الزمان .. فإن الحزب السياسى ، بمفهومه الحديث ، يعتبر فى الواقع : اختراع القرن العشرين .

أن كل الدســاتير تعطى للفرد العادى حقوقا سياســية معينة . ولكن وجود هذه الحقوق شىء .. وممارستها شىء آخر مختلف . فى فرنسا مثلا ، يستطيع كل شخص – نظريا – أن يرشــح نفســه لرئاسة الجمهورية . ولكنه عمليا ـ لا يستطيع ذلك ، إلا إذا كان يسانده حزب .. أو مجموعة أحزاب . فى بريطانيا .. يســتطيع كل شــخص أن يرشح نفسه نائبا فى مجلس العموم (بعد أن يدفع قيمة التأمين) . ولكن فى التطبيق ، لا أحد يملك فرصة النجاح غالبا بغير وجود حزب سياسى قوى يؤيده ويدعمه .

أن الحـزب السياسـى هـو إذن منظمة يجمعها مبـدأ محدد .. أو نظريـة محددة .. تسـتهدف الوصول إلى السـلطة بطريق الإنتخاب ، وتسعى للتعبير عن الرأى العام كوسيلة للنجاح فى هذا الإنتخاب .

إن الرأى العام – قبل وجود الحزب السياسى – هو مجرد رأى خام .. ثم يأتى الحزب السياسى لكى يصنع منه رأيا «معجونا» أو مشكلا حسب نظرية الحزب .

ولكـن الأحزاب فـى المفهوم الحديث لا تكتفى بمجرد التعبير عـن الرأى العام . إنها فـى الواقـع تبلوره وتشـكله بأكثر مما تشـوهه . وهى تمارس معه حـوارا أكثر مما تردده كصدى . فبغير الأحزاب هناك فى الرأى العام اتجاهات غامضة وغريزية ومتنوعة .. تعتمد على شـخصية كل فرد وتعليمه وعاداته ومركزه الاجتماعى وتطلعاته وطموحاته ومصالحه الاقتصادية .. إلخ .

والأحـزاب السياسـية لا تمارس هذه الوظيفة بالضرورة فـى كل البلاد وفى ظل جميع الظـروف . فمـن المعروف مثلا أن البلاد التى لا توجد فيهـا للتقاليد الديموقراطية أقدمية زمنيـة كافية .. وليس للأحزاب السياسـية فيها جذور قويـة .. فإن نتائج الإنتخابات لا تأتـى دائمـا معبرة بصورة دقيقة عن اتجاهات الرأى العام .. كما أن كل انتخاب يمكن أن تأتى نتائجه مختلفة تماما – بل وربما مفاجئة – عن الإنتخاب السابق .

وحتـى فـى البلاد العريقة فى الديموقراطية ، هناك فرق بين تأييد الرأى العام للحزب كبرنامج ، وتأييده له كقيادات . إن الرأى العام يتم اسـتخراجه أساسـا من مجموع الآراء الخاصـة للأفراد . ومن أجل هذا يقوم الحزب السياسـى بدخـول الانتخابات العامة على أسـاس برنامج انتخابى معلن . فى هذا البرنامج الانتخابى يكون هدف الحزب هو جذب أكـبر عدد ممكـن من الأصوات الانتخابية عن طريق اقـتراح أهداف محددة يخاطب فيها مصـالح أكـبر عدد من الأفـراد . إن وقوف الأفـراد إلى جانب هذه الأهـداف ليس معناه بالضرورة وقوفا مع الحزب نفسه ككل ، والعكس بالعكس .

وقـد حدث فى فرنسـا مثـلا فى سـنة ١٩٥٦ أن أعطى أكثر مـن ٢٥٪ من الناخبين الفرنسـيين أصواتهم إلى مرشـحى الحزب الشيوعى الفرنسى .. بينما كان العدد الأكبر من هؤلاء يقف ضد الشيوعية كإيديولوجية وضد الحزب الشيوعى نفسه كبرنامج شامل . ولكن

الذى حدث هو أن الجزء الأكبر من هؤلاء الناخبين كان يتفق مع الحزب فى قضية محددة ضمن برنامجه .

إن هـذه الظاهـرة ، وكثير غيرها ، هى دائما السـبب فى أن بعـض الخبراء يعتبر أن الأحزاب السياسـية لا تعطى دائما أصدق تعبير عن الرأى العام . حسـنا . ربما يكون هذا صحيحـا . . ولكـن حتى الآن لم تخترع الديموقراطية شـيئا أفضل . فالرأى العام ، بغير منظمات كبرى تنبع منه متعبر عنه ، يظل شيئا متغيرا وغامضا ومتذبذبا وغير مستقر . إن الأحزاب السياسـية هى إذن إحدى الوسائل التى تلم شمل الأفراد المبعثرين والمتناثرين .. تحت برنامج واحد .. وفى تنظيم محدد .. وداخل حزب واحد ، يتنافس بدوره عن طريق الانتخابات الحرة والمفتوحة مع الأحزاب الأخرى .

❑❑❑

لـماذا إذن يختلـف النظام الحزبى من دولة إلى أخرى ؟ لـماذا تأخذ بعض البلاد بنظام الحزب الواحد .. وبعضها بنظام الحزبين .. وبعضها بنظام تعدد الأحزاب ؟ بل ولماذا تقرر بعض البلاد أن ترفض نظام الأحزاب جملة وتفصيلا ؟

إن السؤال الأخير لا مكان لإجابته هنا من زاوية اهتمامنا الآن . ومن هنا سوف أقتصر هنا على النظام الحزبى نفسـه .. ما الذى يجعله مكونا من حزب واحد .. أو من عشـرين حزبا ؟ ثم .. كيف يؤثر عدد الأحزاب نفسه على صفات وملامح كل حزب ؟

من الناحية المبدئية هناك ظروف خاصة بكل بلد ، وكل حزب على حدة ، تتحكم فى ظروف نشـأته . والظروف الخاصة نجدها فى التقاليد السـائدة فى المجتمع ، وتاريخه ، وبنائـه الاجتماعى والاقتصادى ، ومعتقداته الدينية ، وخصوصياته القومية .. وهكذا . إن نشأة الحزبين الجمهورى والديموقراطى فى الولايات المتحدة مثلا .. والتنافس أو الخصومة بينهما .. نشـأت من الخصومة بين جيفرسون وهاميلتون فى السنوات المبكرة للاتحاد بين الولايات ، التى كانت فى الأصل دولا مستقلة .

وانشقاق الجناح اليمينى فى فرنسا ونشأة الحزب الراديكالى ، يرجع إلى موقف سياسى خاص نشـأ فى فرنسـا فيما بين سـنتى ١٨٧٥ و ١٩٠٠ . وفى الدول الإسكندنافية تتميز الأحزاب الزراعية بعناد يرجع فى أصله إلى منتصف القرن التاسـع عشـر ، حيث كانت

مصالح القرية تتعارض مع مصالح المدينة .. والفلاحون ضد النبلاء .في النمسا قبل الحرب العالمية الأولى ، وفى تشيكوسلوفاكيا قبل الحرب العالمية الثانية ، كانت الأحزاب السياسية انعكاسا للخصومات بين القوميات المختلفة التى يضمها كل من البلدين .. إلخ .

أما العوامل التى تؤثر على النظام الحزبى فهى عوامل اجتماعية / اقتصادية .. وعوامل ايديولوجية .. وعوامل فنية .

● أن تأثير التركيب الطبقى لكل مجتمع يؤثر قطعا على بنائه الحزبى . ففى أوربا القرن التاسع عشر مثلا كان الصراع أساسا بين الملاك الأرستقراطيين للأرض .. وبين طبقة التجار . لهذا كانت الأحزاب تتراوح بين المحافظين المعبرين عن الملاك .. والأحرار المعبرين عن التجار . وعندما ظهرت الأحزاب الاشتراكية فى بداية القرن العشرين كان ظهورها مصاحبا لدخول طبقات العمال الصناعيين إلى الحياة السياسية .

● هناك أيضا الإيديولوجيات السياسية للأحزاب . فكل ايديولوجية تخاطب مصالح قطاع من المجتمع تعبر عنه ، وتقوم بدور المغناطيس الذى يجذب هذا القطاع إلى الحزب . أن الاستثناء الوحيد لذلك هو الحزبان الجمهورى والديموقراطى فى أمريكا . فبرامج هذين الحزبين لا تخاطب طبقات فى المجتمع ، والتجانس الاجتماعى ليس موجودا فى أى منهما .

● أما العوامل الفنية فهى أساسا النظام الانتخابى المعمول به فى المجتمع . فحيث يعتمد النجاح فى الانتخابات على نظام التصويت من درجة واحدة والأغلبية البسيطة (كما فى مصر) .. يؤدى هذا غالبا إلى تبلور النشاط السياسى حول حزبين كبيرين . وحينما يوجد نظام التمثيل النسبى ، حيث يحصل كل حزب على مقاعد فى البرلمان تعادل نسبة الأصوات التى حصل عليها ، فإن هذا يشجع عمليا على تعدد الأحزاب .

❑❑❑

تبقى بعد ذلك المقارنة بين النظم الثلاثة للأحزاب : نظام الحزب الواحد .. ونظام الحزبين .. ونظام تعدد الأحزاب .

ومن الناحية المبدئية هناك خطأ شائع بين كثيرين من علماء السياسة ، يعتمد على المقارنة بين نظام الحزب الواحد ونظام تعدد الأحزاب باعتبار أن العدد هنا هو معيار التمييز

بين الديكتاتورية والديموقراطية .. أو بين الشرق والغرب . هذا خطأ . فنظام الحزب الواحد كان معمولا به فى اسبانيا حتى وقت قصير مضى وفى كثير من دول أمريكا اللاتينية وإفريقيا وبعض الولايات الجنوبية من أمريكا . بينما نظام تعدد الأحزاب موجود حتى الآن – ١٩٧٦ – رسميا فى ألمانيا الشرقية وبعض دول الكتلة الشرقية عموما . أن وجود حزب واحد ليس إذن قرينة نهائية على وجود ديكتاتورية سياسية .. كما أن وجود أحزاب عديدة ليس قرينة نهائية على وجود ديموقراطية . إن الذى يحسم الأمر إذن هو دراسة كل حالة على حدة .

❑❑❑

أولا : نظام الحزب الواحد .

بالرغم من أن الحكم الديكتاتورى قديم قدم البشرية ذاتها .. فإن الحكم الديكتاتورى الذى يعتمد فى بقائه بالسلطة على حزب سياسى واحد – كما كان الحال فى إيطاليا الفاشية وألمانيا النازية .. وكما هو الحال الآن فى الاتحاد السوفيتى وبعض دول الكتلة الشرقية – هو نوع جديد من النظام السياسى .

واعتماد النظام السياسى على حزب واحد ، هو ظاهرة بدأ تطبيقها قبل أن توضع لها نظرية ، كما حدث فى تركيا أيام كمال أتاتورك ، وفى البرتغال حتى فترة قريبة . وحتى فى الاتحاد السوفيتى نفسه لم ينص الدستور على احتكار الحزب الشيوعى للسلطة إلا منذ سنة ١٩٣٦.

وأنصار نظام الحزب الواحد يقولون : إن الجماهير لا تستطيع أن تحكم نفسها ، ولابد من نخبة تحكم باسمها . ووجود حزب واحد يحقق مهمة مزدوجة . فهو يقيم صلة عضوية بين الجماهير وبين الحكومة . إنه يقضى على عزلة الحكومة عن شعبها عن طريق انتشار خلاياه فى كل المدن والقرى . وعن طريق هذه الخلايا تستمع الحكومة إلى آراء الناس فى قراراتها ، كما تستطيع أن تتصرف بناء على رغبات الجماهير نفسها . إن الحزب يجعل الحكومة إذن تستمع إلى رأى الجماهير .. ويمكن الجماهير من فهم قرارات الحكومة . وكفاءة الحزب تأتى من قيامه بهذه الوظيفة المزدوجة . فلأنه جزء من الدولة .. فهو قادر على فهم القرارات من الداخل . ولأنه مجموعة من المواطنين .. فإنه قادر على التعبير عن ردود فعل الجماهير إلى السلطة .

أما خصوم هذا النظام فإنهم يردون على مبدأ احتكار حزب واحد للنشاط السياسى . أن نظام الحزب الواحد فى نظرهم هو إحياء لفكرة «الحرس البريتورى» أيام الإمبراطورية الرومانية . لقد كان الإمبراطور المستبد يقيم هذا الحرس لحمايته شخصيا وتدعيم قدرته على الاستبداد . وكما كان الإمبراطور الرومانى يحتفظ بولاء «الحرس البريتورى» له عن طريق الامتيازات المتوالية التى يعطيها له .. كذلك فإن الديكتاتور فى القرن العشرين يحتفظ بولاء الحزب السياسى له عن طريق الخدمات والمصالح المحددة التى يضمنها لأعضائه . هذه الخدمات تبدأ من احتكارهم للمناصب الإدارية وحصولهم على المزايا المادية وانفرادهم بالحرية والسلطة .. وانتهاء بمصالح اقتصادية واحتكارية .. إلخ .

إن الحزب السياسى الواحد يقوم هنا بدور الحاشية للديكتاتور .. وأعضاؤه مستمرون بقدر تجديد ولائهم للديكتاتور وليس بقدر كفاءتهم أكثر من غيرهم .

أما عن قيام أعضاء الحزب السياسى الواحد بدور الموصل بين الجماهير والقادة ، فالواقع أن هذا الموصل يقوم بدوره فى اتجاه واحد فقط هو تبليغ تعليمات القيادة إلى الجماهير ، مما يؤدى بالضرورة إلى عزل أفراد الحزب عن الناس ويخبىء عنهم ردود الفعل الحقيقية للجماهير . إن الحقيقة لابد من إعادة تشكيلها عند كل مستوى من مستويات الحزب . فالعضو العادى يستطيع – لو تحرر من شعارات الحزب – أن يعرف الحقيقة . ولكنه بحكم فطنته وغريزته يخصم جزءا منها عند نقلها إلى القائد المحلى . ولنفس الأسباب يقوم القائد المحلى بخصم جزء آخر من الحقيقة عند تبليغها لقائد الحى . ثم يقوم قائد الحى بخصم ثالث حينما ينسق مجموع التقارير ويرفعها إلى اللجنة القيادية الأعلى . وأخيرا تخصم اللجنة القيادية جزءا رابعا من الحقيقة عند نقلها إلى قائد الحزب ، الذى هو أيضا رئيس الدولة .. بحيث أن هذا الأخير يصبح فى النهاية معزولا عن الواقع بقدر عزلة لويس الرابع عشر عن الجماهير الفرنسية داخل قصر فرساى .. وزوجته تواجه مظاهرات الجائعين ولا يجدون رغيف الخبز بردها وتساؤلها المفحم : .. ولماذا لا يأكلون الجاتوه ؟!

ونجاح نظام الحزب الواحد فى القرن العشرين يرجع إلى الإمكانيات الفنية الهائلة التى وضعتها التكنولوجيا فى خدمته ، وفى مقدمتها وسائل الدعاية والإعلام . فمن خلال الصحف والإذاعات المسموعة والمرئية ، ومن خلال التكرار نفسه ، يستطيع الديكتاتور أن ينشر أفكاره ، ويكررها ، بين الجماهير .

ولكن الإقناع وحده لايكفى . ومن ثم فلابد أن يصحبه كبت وقمع وتجسس . من هنا يتحول الحزب الواحد ، عاجلا أو آجلا ، إلى تنظيم بوليسى .. أو تصبح له مهمة بوليسية إلى جانب المهمة السياسية .

وأبرز نماذج نظام الحزب الواحد هى : الحزب الفاشى الإيطالى ، والحزب النازى الألمانى ، والحزب الشيوعى السوفيتى . إن العقيدتين الفاشية والشيوعية تختلفان تماما من الناحية الفكرية ، وهذا يعكس بدوره اختلافا فى طبيعة وبناء الحزب السياسى الواحد فى كلا النظامين .

فالحزب الفاشى يعتمد فى نشأته على الميليشيات المسلحة . ولكن الحزب الشيوعى يعتمد على الخلايا التنظيمية . والأول تكون العضوية فيه مغلقة بعد الوصول إلى السلطة.. ولكنها فى الثانى تكون مفتوحة بقيود . والحزب الفاشى (بعد النصر) يخضع لسلطة الدولة . ولكن الحزب الشيوعى يسيطر على سلطة الدولة . والأول دوره فى إعادة بناء المجتمع محدود .. ولكن الثانى دوره شامل .

ورغم أن كثيرين من علماء السياسة يعتبرون أن الأحزاب الفاشية والأحزاب الشيوعية تمثل النموذجين الوحيدين لنظام الحزب السياسى الواحد .. إلا أن هناك فى الواقع نماذج أخرى لا يشترط أن تمثل تطرف اليمين (كما فى الفاشية) أو تطرف اليسار (كما فى الشيوعية) .

من تلك النماذج مثلا نظام الحزب الواحد الذى أقامه كمال أتاتورك فى تركيا . ففى الفترة بين سنة ١٩٢٣ وسنة ١٩٤٦ كان حزب الشعب الجمهورى هو وحده الذى يحتكر عمليا كل النشاط السياسى فى تركيا ، بالرغم من أن هذا الاحتكار لم يتم الاعتراف به رسميا .. بل كان هناك شبه خجل منه واعتذار عنه .

ويرجع الاعتذار إلى أن ثورة كمال أتاتورك لم تكن ايديولوجية – كما فى الفاشية أو الشيوعية – ولكنها كانت ثورة عملية ، ومهمتها كانت تحويل تركيا إلى مجتمع غربى . والحزب نفسه لم يعتمد فى تشكيلاته على الخلايا أو الميليشيات . ورغم أن نظام أتاتورك لم يكن فاشيا ، إلا أنه أيضا لم يكن ديموقراطيا . ففى التطبيق كانت الانتخابات هى مجرد استفتاءات تقتصر على مرشح واحد ، والحريات السياسية ظلت مقيدة .

إن نفس الظاهرة يمكن تسجيلها عن النظام السياسى فى البرتغال حتى فترة قريبة مضت .. حيث كان يوجد حزب واحد ، هو الاتحاد القومى ، يشترك فى ملامح كثيرة مع حزب الشعب الجمهورى فى تركيا .

وبصفة عامة فإن طبيعة الحزب السياسى الواحد تتوقف على نشأته . فإذا نشأ نظام الحزب الواحد أصلا فى ظل نظام ديموقراطى يقوم على تعدد الأحزاب (كما حدث فى ايطاليا وألمانيا) فإنه فى الواقع يلغى الديموقراطية تماما منذ لحظة وصوله إلى السلطة .

أما إذا نشأ الحزب الواحد فى بلد يخضع لحكم استبدادى أو بلا أحزاب (كما حدث فى تركيا والاتحاد السوفيتى) فإنه يمثل خطوة إلى الأمام فى طريق تطوير المجتمع ، وتخليصه من المظالم السابقة ، ومن ثم أكثر ديموقراطية .

❑❑❑

ثانيا : نظام الحزبين .

برغم أن بريطانيا تضم ثلاثة أحزاب ، هى المحافظون والعمال والأحرار ، إلا أنها من الناحية العملية تعتبر فى الواقع من البلاد التى يعتمد فيها النظام السياسى على حزبين كبيرين . لقد كان الصراع أساسا بين المحافظين والأحرار .. إلى أن شهد مطلع القرن العشرين ميلاد الأحزاب الاشتراكية نتيجة لتضخم أعداد العمال الصناعيين ودخولهم إلى الحياة السياسية . إن تلك الظاهرة جاءت بحزب العمال لكى يأخذ مكان الحزب الثانى بدلا من حزب الأحرار ، الذى تراجع إلى أسفل ، وأصبح زواله من الحياة السياسية مجرد مسألة زمنية .

ومن البلاد التى تأخذ بهذا النظام أيضا الولايات المتحدة . وهى من بين البلاد القليلة فى العالم التى لم يتعرض فيها هذا النظام لأى تحد جاد أو خطير . فرغم محاولات متكررة لخلق «حزب ثالث» .. إلا أنها جميعا فشلت أو تمخضت فقط عن أحزاب أقليات محلية فانية وسريعة الزوال .

وفى أمريكا اللاتينية يسير الاتجاه العام نحو نظام الحزبين ، بالرغم من أن الانقلابات العسكرية والثورات المتقطعة تعترض هذا التطور وتعيد تشكيله من وقت لآخر . أما فى تركيا فقد كان هناك حزب واحد حتى سنة ١٩٤٦ حينما ولد الحزب الديموقراطى .. الذى حصل على مقاعد قليلة جدا فى أول انتخابات نتيجة لضغوط الحكومة . ولكنه فى

الانتخابات التالية (سنة ١٩٥٠) حقق نصرا كبيرا حينما حصل على ٥٥٪ من الأصوات و٤٠٨ مقاعد مقابل ٣٩ مقعدا فقط لحزب الشعب الجمهورى ، ومقعد واحد للحزب الوطنى الذى نشأ اصلا كانشقاق عن الحزب الديموقراطى ، ولكنه سرعان ما اختفى .. فأصبحت تركيا بذلك تنتمى الآن إلى الدول التى تأخذ بنظام الحزبين .

ويلاحظ فى هذا التوزيع الجغرافى لنظام الحزبين أنه أصبح منحسرا فى بلاد كثيرة . وهذا يرجع إلى بداية القرن العشرين نتيجة لقيام الأحزاب الاشتراكية . ولكن برغم خسوف هذا النظام فى بعض البلاد ، مثل بلجيكا ، إلا أنه عاد إلى الظهور فى البلاد التى كانت تأخذ به أصلا .

وبصفة عامة فإن البلاد التى يوجد بها حزبان ، ثم يظهر حزب ثالث ، فإن واحدا من الأحزاب الثلاثة لابد أن يزول غالبا .. إما بالاندماج ، أو بالاستئصال . أن الاستئصال هو حكم من الواقع ، وله تفسيران : تفسير ميكانيكى .. وتفسير نفسى .

أما التفسير الأول فهو أن نظام نجاح النائب بالأغلبية البسيطة (كما فى مصر) يعطى للحزب الأضعف دائما تمثيلا نيابيا أقل مما يحصل عليه من أصوات ، بحيث أن عدد مقاعده فى البرلمان يظل دائما غير ملائم للنسبة التى حصل عليها من أصوات الناخبين .

وأما التفسير النفسى فيرجع إلى أن الناخبين سرعان ما يدركون أن أصواتهم تضيع هباء ، ومن ثم فأنهم ينقلونها إلى الحزب الأقل سوءا من وجهة نظرهم فى الحزبين الباقيين.. وبالتالى نصل إلى نفس النتيجة ، وهى أن الواقع يحكم غالبا باستئصال الحزب الأضعف بحيث نعود فى النهاية إلى نظام الحزبين .

ويبدو أن هذه النتيجة هى نتيجة لا مفر منها لنزام التصويت ذى الدرجة الواحدة الذى يعتمد على النجاح بأغلبية بسيطة . ففى ظل هذا النظام لا أمل لظهور حزب ثالث إلا إذا حصل على مساندة قوية محليا .. أو اعتمد على تنظيم قوى ومتماسك قوميا . فى الحالة الأولى سوف يتقدم الحزب إلى الأمام ببطء وبألم ومشقة . فى الحالة الثانية يمكن فعلا أن يأمل فى تحقيق نمو ثابت ودائم يرفعه إلى مستوى الحزب الثانى .. ولحظتها ، وبألم ، تختار قوانين الاستئصال ضحية أخرى لها من الحزبين الأخريين !

❑❑❑

ثالثا : نظام تعدد الأحزاب .

فـى نقطـة من النقط يمكن أن يتسـاوى تعـدد الأحزاب مع عدم وجـود أحزاب على الإطلاق ، وهذه ظاهرة غريبة ـ ولكن مألوفة ـ كما يعرفها علماء السياسـة . فحينما يصل التعدد الحزبى فى بلد إلى الدرجة التى يصبح فيها الرأى العام منقسما بين مجموعات عديدة غير مستقرة .. وسائلة .. وقصيرة العمر .. فإنه بذلك لا يقدم نموذجا للتعدد الحزبى بشكل صحيـح . إنه ما زال فـى الواقع يعيش تاريخيا فى عصر ماقبل الأحزاب ، لأن الأحزاب فى هذه الحالة لا تصبح قوية ولا معبرة بما يكفى لتكوين حياة سياسية مستقرة .

لقـد عاشـت فى تلـك المرحلة كثير من دول أوربـا الغربية فى الفـترة مابين الحربين العالميتـين الأولى والثانية .. وتعيش فيها الآن بعـض دول افريقيا وأمريكا اللاتينية ، كما كانت تعيش فيها أيضا كل الدول الغربية الكبرى فى القرن التاسع عشر .

والوصول إلى تحليل عام لظاهرة تعدد الأحزاب هو أمر صعب ، لأن التعدد هنا يبدأ من ثلاثة أحزاب ويستمر إلى ما لا نهاية . وفى داخل كل حالة هناك أشكال وظلال عديدة . فنظـام الأحزاب الثلاثة التى تشـكلت فى فرنسـا بعد تحريرها مـن الاحتلال النازى فى الحرب العالمية الثانية لا يشـبه الأحزاب الثلاثة التقليديـة فى بلجيكا . ونظام الأحزاب الأربعة فى الدول الإسكندنافية يختلف عنه فى سويسرا .

مع ذلك فإن التحليل العام يصبح ممكنا لو اعتبرنا أن ظاهرة الحزبين هى الأسـاس فى التفكير السياسـى . فالواقع العملى يبين أن هناك دائما اتجاهين اساسـيين فى السياسة : يمين ويسـار .. أو معتدلون ومتطرفون .. أو مصلحون وثوريون .. أو شـباب وشيوخ .. أو مسالمون ومحاربون .. أو مرنون ومتشددون .. أو أصحاب مصلحة فى استمرار الأمر الواقع وأصحاب مصلحة مضادة فى تغيير الأمر الواقع .

إن كل حزب سـوف يكون فيه دائما المعتدلون والمتطرفون ، والاثنان مكملان لبعضهما غالبـا . ولكن التعدد يبدأ حينما يفقد الطرفان الأرضية المشـتركة التى يلتقيان عليها . إن هذا هو ما حدث فى سويسرا مثلا حينما حدث انشقاق بين الراديكاليين والأحرار فى سنة ١٨٤٨ فأصبح هناك ثلاثة أحزاب ، سـرعان ما تحولت إلى أربعة بظهور الاشـتراكيين . نفس الشىء حدث فى فرنسا . فلقد أدى تشكيل الحزب الراديكالى إلى انشقاق فى صفوف الجمهوريين بحيث أنه فى نهاية القرن التاسع عشر أصبح هناك ثلاثة أحزاب .

والحالة الثانية التى يقع فيها التعدد الحزبى .. هى حالة التداخل بين القضايا الكبرى . فلو كان كل الفرنسيين مثلا متفقين على أن العداء بين الشرق والغرب له الأولوية على كل شىء ، يصبح أمامنا حزبان فقط .. حزب شيوعى وآخر معادى للشيوعية . وإذا اتفق كل الفرنسيين على أن الصراع الأساسى هو بين الاقتصاد الحر والاقتصاد المخطط .. إذن نصبح أيضا أمام حزبين : محافظين واشتراكيين .. وهكذا .

إن التعدد الحزبى هنا يأتى من التداخل بين القضايا الكبرى بحيث أن القضية الأولى عند كل قطاع من الرأى العام تختلف وتتقاطع مع القضية الأولى عند قطاع آخر .

أما الحالة الثالثة التى تؤدى إلى التعدد فهى حالة الدخول فى ظاهرة جديدة قبل موت ظاهرة قديمة . إن ظهور الأحزاب الإشتراكية أدى إلى ظهور حزب ثالث فى انجلترا وبلجيكا والسويد واستراليا ونيوزيلندا .. إلخ ، بينما لم يحسم قطاع من الرأى العام بعد ولائه لحزب قديم يعبر عن مصالح اجتماعية انتهت مع القرن التاسع عشر .

وأحيانا يكون الأساس فى التعدد الحزبى هو تعدد الأجناس داخل الدولة الواحدة . ففى الإمبراطورية النمساوية مثلا قبل الحرب العالمية الأولى كان هناك ٢٥ حزبا ، وفى تشيكوسلوفاكيا قبل الحرب العالمية الثانية وصل العدد إلى ١٤ حزبا ، وفى أسبانيا سنة ١٩٣٦ وصل العدد إلى ٣٦ حزبا .

❑❑❑

وأخيرا فإن سيكولوجية بعض الشعوب قد تكون عاملا هاما فى التعدد الحزبى . فالشعوب اللاتينية مثلا ، نتيجة لاعتزاز المواطن الشديد بفرديته واستقلاليته ، تميل إلى التعدد الحزبى .

والشىء الوحيد الذى يستطيع أن يؤكده عالم السياسة هو أن وجود نظام التمثيل النسبى فى الإنتخابات ، بمعنى توزيع المقاعد البرلمانية على الأحزاب حسب نسبة الأصوات التى حصلت عليها ، يؤدى بالضرورة إلى تشجيع كثرة الأحزاب وتعددها . لكن فى جميع الحالات يظل الأصل هو حق المواطن الفرد المستقل فى ترشيح نفسه لعضوية البرلمان .

الإيديولوجيا ..
بين من لا قلب لهم ..
ومن لا عقل فيهم

حينما تفتح التليفزيون فتفاجأ بأن الراقصات قد أصبحن شهيدات فى الوطنية ..

وحينما تفتح مجلة فتجد أن عبد الناصر قد نصبت له المشـانق ، أو علقت على صدره الأوسمة ..

وحينما تتحدث جارتك عن الإنفتاح ، بينما يتحدث أسـتاذ الجامعة عن التهريب فى شارع الشواربى بالقاهرة ..

وحينما يتحدث الناس عن الأحزاب ، وزعماء الأحزاب عن الصحافة ، والصحافة عن زيارة أنور السادات لمنطقة القناة ..

وحينمـا تتحـدث صحف الكويت عن الحج فى السـعودية ، وصحف السـعودية عن السلام فى لبنان ، وصحف لبنان عن الوفاق بين أمريكا والاتحاد السوفيتى ..

وحينما يطبع الزعيم الروسى بريجينيف قبلة حارة على جبين الرئيس اليوغوسلافى تيتو ، بينما يقول الرئيس الفرنسى ديستان عن ملك المغرب إنه صديقه العزيز جدا جدا..

وحينمـا تعـود الممثلة اليونانية ميلينا ميركورى إلى بلدهـا اليونان بعد أن اتجه غربا ، وعمر الشريف إلى القاهرة بعد سنوات من الغربة ..

وحينما يكتب نجيب محفوظ عن حزب الأغلبية ، ويتكلم خالد محيى الدين عن قانون المطبوعـات ، وجـلال الدين الحمامصى عن الحرية المشـكوك فيها ، ومصطفى خليل عن ملكية الاتحاد الاشتراكى للصحف ..

● جريدة «أخبار اليوم» : ١٩٧٦/١٢/١١ .

وحينما يقرأ رجل الشارع عن ألف أوتوبيس من أمريكا ، والموظف الصغير عن تحسن قادم فى كادر المرتبات ، وأهل المنصورة يطالبون هم أيضا بمدينة حرة كما جرى فى بورسعيد ..

حينما يحدث كل ذلك .. ليس فقط فى عصر واحد أو عام واحد .. ولكن ربما فى يوم واحـد .. فلا بد للإنسـان أن يختل توازنه قليلا وهو يحـاول أن يربط بين هذا كله .. إذا كان يستطيع حقا أن يفعل ذلك .

ولكن الإنسان يستطيع فعلا أن يفعل ذلك .

نعم . يسـتطيع الإنسـان أن يكتشـف ما يربط بين كل ذلك ، ولو بقليل من المجهود والصبر . المجهود ، لأن العالم الذى نعيش فيه لم يولد فجأة ، وإنما هو نسـيج متشـابك لابد أن نمسـك الخيط فيه من أوله . والصبر لأن هذه الأحداث والتفاصيل الصغيرة لايمكن رؤيتها إلا من خلال إدراك للأفكار الأساسـية التى تحرك كل هذا .. بحيث أن الناس هم فى النهاية فعلا أشـبه بالكومبارس الذين يعرفون حدود الدور أمامهم ، ولكنهم لا يعرفون أصل الرواية .

والرواية أصلها فكرة . والفكرة هى تصور عقلى . والعقل هو الأساس فى الوجود البشرى كله . فالإنسـان – من بين كل الكائنات الحية – هو أولا مخلوق عاقل .. بغير أن يعنى هذا بالضرورة أن يكون دائما مخلوقا حكيما .

ومن عقل الإنسان ولدت تلك الأفكار القليلة الكبرى التى حركت وتحرك عالمنا المعاصر . أفكار تتراوح بين الرأسمالية والشـيوعية والقومية والفاشـية والاشتراكية والديموقراطية .. إلخ .. إلخ .

إنها أفكار بلغت من قوتها وسـيطرتها علـى أفعالنا ، الدرجة التى أصبحت فيها هى القـوة الخفية التى تحرك كل التفاصيل أمامنا بغير أن نراها هى بطريقة مجردة . أفكار لم تأت من عقول زعماء سياسيين ، بالرغم من أنها رفعت زعماء إلى السماء وهبطت بزعماء إلى الحضيض .. ولم تساندها امبراطوريات وجيوش .. بالرغم من أنها دمرت جيوشا وحركت امبراطوريات . أفكار قليلة كبرى ، كانت هى السـبب فى أن الإنسـان عاش طوال المائتى سنة الأخيرة فى عصر يسمى «عصر الإيديولوجيات الكبرى» . عصر دخله نصف العالم وهو الآن يخرج منه .. بينما تأخر عنه النصف الآخر ، وهو الآن يدخل فيه .

إن هـذه الأفكار الكبرى هـى التى تخلق اليوم التفاصيل الصغيرة فى حياتى وحياتك.. ابتداء من فيلم «المتهم البرىء» الذى عرضه التليفزيون هذا الأسبوع .. إلى الأحزاب السياسية التى أصبحت هى قضية مصر هذه السنة .

❑❑❑

وأول هـذه الأفـكار الكبرى الغامضة والمطاطة هى فكـرة : الرأسمالية . أن هذه الكلمة تدخلـك الآن إلى الجنة فى نصف العالم ، بينما فى النصف الآخر تدخلك إلى معسـكرات الاعتقال والتعذيب والجحيم . إنها كلمة لا تشـير إلى مجرد معنى لغوى ، ولكنها تشـير إلى أسـلوب كامل فى الحياة ، ونظرة شـاملة إلى الدنيا وعلاقة كاملة مع الناس والأشـياء حولنـا . إنهـا مذهب كامل .. لا يترك بصماته فى أفكارنا فقط .. ولكن أيضا فى تفاصيل حياتنا اليومية .

والحديـث عن الرأسمالية معناه الحديث عن أول قنبلة زمنية فى عصر الإيديولوجيات الكبرى ، الذى يعيشه الإنسان منذ مائتى سنة .

لماذا مائتا سـنة ؟ ألم يولد الإنسـان وهو بالطبيعة رأسمالى ؟ ألم يولد وفى دمائه غريزة التملـك ، وأمنيتـه أن يكون غنيا ؟ ألم يقتل قابيل أخاه هابيل .. بحيث أنه قتل يفسـره البعض تفسيرا اقتصاديا ؟

والواقع ليس كذلك على الإطلاق ، لأن الإنسـان ليس شـهادة استثمار تصدرها السماء كما يصدر البنك الأهلى شـهاداته هذه الأيام . الإنسـان ليس مجرد مشـروع اسـتثمارى للطبيعة.. وهو لا يقضى حياته عبدا لتلك العملات التبادلية التى نسـميها النقود . نعم ، يمكن للإنسان أن يكون عبدا ، وقد كان كذلك فعلا فى مراحل طويلة من تاريخه . لكنه كان عبدا لشىء آخر اسمه : العادة .

نعم . الإنسـان بطبيعته مخلوق تصنعه العـادة . والعادة فى الماضى كانت هى التقاليد والأوامر التى يضعها الملوك والنبلاء الذين كان كل شىء يتم باسمهم ولحسابهم . لقد اعتاد الإنسان قديما أن يعيش فى مكان ولادته ، بحيث لا يغادره إلا إلى القبر . إنه يزرع ويأكل وينجب ويكبر ويشـيخ .. وهذا كل شـىء . إنه لا يسافر .. لأن السفر مكلف ، وفضلا عن ذلك فوسائل المواصلات لم تكن سوى الدواب . إنه لا يدّخر لأن البنوك لم تكن موجودة ،

والنقود نفسها متغيرة والتجارة غير منتشرة . إن سوق عكاظ الذى اشتهر فى الأدب العربى لم تكن فيه بضائع أكثر من عشرة بوتيكات فى شارع الشواربى بالقاهرة . وجملة البضائع التى كانت تصل إلى فرنسا سنويا حتى القرون الوسطى لم تكن تملأ قطارا واحدا من قطارات الصعيد فى هذه الأيام .

أكثر من ذلك .. فإن التاجر الذى كان ينقل بضاعته بين مدينتين مثل بال وكولونيا فى ألمانيا .. وهى مسافة تقل عن تلك التى بين القاهرة ودمياط .. كان يدفع رسوما جمركية على بضاعته كل ثمانية كيلومترات .. بحيث تصل البضاعة أخيرا وقد سددت عنها الرسوم الجمركية إحدى وثلاثين مرة !

من ناحية أخرى كانت فكرة التجارة نفسها مرفوضة . ولقب تاجر ، لو قيل عن شخص ، فإنه مقدمة لإدخاله إلى الجحيم ! ولو ذهبنا إلى مدينة بوسطون فى أمريكا مثلا (التى هى الآن قلعة العالم الرأسمالى) سنة ١٦٤٤م – أى قبل أقل من أربعة قرون – فإننا سوف نشهد محاكمة كبرى لمواطن شهير اسمه « روبرت كين» . إنه من رجال الدين القدامى ولم ينجب أطفالا ومن أهل الغنى . إن الإتهام الشائن الموجه إليه فى المحاكمة هو أنه حقق ربحا قدره ستة بنسات (أى ما يساوى أربعة قروش) .. وهذا كسب شائن فاحش . وبسبب هذه الجريمة المنكرة فإن المحكمة تبحث فى احتمال حرمانه من الكنيسة بسبب هذا الذنب الذى ارتكبه .

ولكن ، نظرا لبياض صحيفته فى الماضى ، وشهادة جيرانه بحسن سلوكه ، فإن المحكمة تتسامح معه وتكتفى بفصله من العمل وتغريمه ما يعادل مائتى جنيه ! ومقابل هذه «الرحمة» من المحكمة يجثو مستر كين على ركبتيه أمام آباء الكنيسة و : «يعترف والدموع تنهمر من عينيه بما انطوى عليه قلبه من جشع وفساد» !

❑❑❑

إن هذا كله كان مؤشرا لنظرة كاملة من المجتمع فى القرون الوسطى إلى الربح والثروة و – بصفة عامة – التجارة . ولأن الإنسان هو عبد للعادة كما قلت ، فإن الابتكار أصبح عدوا للمجتمع . والنقود أصبحت رمزا لإبليس ، بحيث أن الكنيسة فى القرون الوسطى كانت تلقن الناس أنه «لا ينبغى للمسيحى لأن يكون تاجرا» . إن هدف الإنسان فى الحياة ليس هو تحسين مستواه المادى . ولا تحقيق مزيد من الكسب . ولا اكتناز النقود . أما كيف يبيع الإنسان ويشترى .. فإنه يفعل ذلك بالتبادل أو المقايضة .. وليس بالنقود .

وكان هذا مألوفا .. بمثل ما هو مألوف اليوم عند بعض القبائل الإفريقية أن تسال عن عدد الثيران التى تساويها المرأة ، بغير أن يعنى هذا أنك إنسان غير مهذب ، أو لم تؤمن بعد بأفكار قاسم أمين وحركة تحرير المرأة !

بكلمات أكثر تخصصا هذه المرة : أن العالم كله ظل حتى القرن السابع عشر لا ينظر بعد إلى الأرض والعمل ورأس المال باعتبارها عوامل إنتاج أساسية يحدد السوق دورها . أن الأرض – بمعنى التربة – كانت موجودة طبعا . ولكنها لا تمثل فكرة مجردة أو مشروعا استثماريا قابلا للبيع والشراء وتحقيق ربح . إن كل منطقة من الأرض مملوكة لنبيل أو شريف أو «باشا» أو إقطاعى . وكل فلاح يولد على هذه الأرض يظل مقيما فيها .. يزرعها لحساب مولاه .. ويخبز فى فرنه .. ويخدمه فى حربه . وكل هذا بغير أجر نقدى أو ساعات عمل أو بنك تسليف .

وعندما تكون الحياة راكدة بهذا الشكل ، فإن أى حجر نقذفه على سطحها كفيل بخلق دوامة سريعة متتابعة . ولكى نطبق هذا على الواقع ، يكفى أن نحسب التأثير الاقتصادى لتطور واحد بسيط هو : أن الصوف أصبح سلعة مجزية . والصوف يتطلب المراعى التى يستغلها منتج الصوف لترعى الأغنام فيها . وتقام المراعى عن طريق وضع سور حول مساحة من الأرض ، ثم يعلن الإقطاعى فجأة أن الفلاحين أصبحوا ممنوعين من هذه الأرض .

هكذا استمرت تلك العملية البسيطة ، بحيث أنه فى سنة ١٨٢٠ – أى قبل أقل من قرنين اثنين – حرمت دوقة «سذرلاند» فى انجلترا ١٥ الف فلاح من ٧٩٤ ألف فدان ، وأحلت محلهم ١٣١ ألف رأس من الغنم !

هنا ولدت مشكلة اجتماعية : ما هو مصير هؤلاء الذين طردوا من الأرض ؟ ولكن لم تكن تلك هى المشكلة الوحيدة . فى الواقع أن المشكلة الكبرى قبيل ذلك الوقت كانت هى اقتراب الثورة الصناعية . ولأن الإنسان – كما ذكرت – هو عبد للعادة .. فإنه فى البداية قاوم هذا التطور الجديد بكل ما استطاعه من طرق .

ففى انجلترا مثلا حدث اختراع ثورى هو : آلة لصناعة الجوارب ! وعندما طلب صاحب الإختراع ترخيصا من الحكومة ، رفضت الحكومة بكل إخلاص فى سنة ١٦٢٣ ، وأمرت بإلغاء هذه البدعة الخطيرة .

وفى فرنسا تحركت الحكومة ضد بدعة أخرى أكثر خطورة وكفرا ، هى استخدام القطن فى صناعة الأقمشة ! ولمواجهة هذا الخطر صدرت فى مدينة «فالنس» الفرنسية وحدها أحكام بالشنق على ٧٧ شخصا ، وبكسر ضلوع ٥٨ على دولاب التعذيب وإرسال ٦٣١ للعمل عبيدا فى القواديس .. وبراءة شخص واحد . وكل تلك الأحكام بسبب جريمة واحدة هى : الإتجار فى أقمشة مصنوعة من القطن ، وهذا محرّم ومجرّم .

❑❑❑

كان العصر هو بداية الثورة الصناعية .. والمهنة الوليدة هى التجارة .. والمولود المتعسر هو نظام السوق .. والعملة هى الذهب ، بحيث أن كريستوفر كولومبوس – مكتشف أمريكا فيما بعد – كان يقول عن الذهب إنه شىء مدهش ، لأن من يملكه يصبح سيد كل شىء يرغب فيه ، وبالذهب تستطيع أن تدخل الأرواح الجنة . وهو قول لا يختلف كثيرا عن ما يؤمن به كثيرون من مليونيرات القرن العشرين .

لقد بدأ العصر الحديث بحروب الاستكشافات الجغرافية ، بحيث أن الهند وأمريكا أصبحتا أحلام المغامرين ، والشرق أصبح محطا لأحلام الكثيرين من التجار والبحارة . ولم يكن الملك أو الحكومة هنا سوى تاجر آخر ـ ولكن أكبر حجما ـ مع التجار الآخرين.. بحيث أن الملكة اليزابيث ، ملكة انجلترا ، ساهمت بأموالها فى رحلة واحدة قام بها سير فرنسيس دريك على السفينى «جولدن هيند» . ومن نصيبها فى أرباح تلك الرحلة وحدها سددت كل ديون انجلترا الخارجية ووازنت ميزانيتها واستثمرت فى الخارج مبلغا كان كافيا مع الفائدة المتراكمة عنه لكى يفسر جزءا من ثروة بريطانيا كلها فيما وراء البحار حتى سنة ١٩٣٠ .

❑❑❑

المهم .. بعد أن كان المجتمع ينظر إلى الثروة باعتبارها رجسا من أعمال الشيطان ، والغنى باعتباره صورة بشرية لإبليس .. بدأ يتراجع قليلا لكى يصل إلى حل وسط هو أن الغنى يحصل على الثروة كدليل على رضاء السماء عنه (كمقدمة لكى يصبح الغنى بعد ذلك هو المتحدث باسم السماء على الأرض) !

من ناحية أخرى توسعت الكشوف الجغرافية ، ودبت الحركة فى العلوم نتيجة لعصر النهضة فى أوربا ، وتلاحقت الابتكارات بحيث شهد العصر السابق على العصر الرأسمالى

مولـد المطبعة ومصنع الورق والطاحونة التى تدور بقوة الرياح والسـاعة الميكانيكية وحشـد مـن الإختراعات الأخرى .. بحيث بدأ الفلاحون القدامى يصبحون عمالا جددا .. والمزارع المهجـورة تتحـول إلى مصانع واسـعة .. والعمل من أجل العمل بـدأ يتحول إلى العمل من أجل النقود . والتجارة التى كانت تتسـاوى مع اللصوصية أصبحت هى المهنة القادمة فى المستقبل ، والسوق الذى كان ظاهرة طارئة بين موسم وآخر أصبح شيئا ثابتا ودائما ومتسعا . والناس الذين كانوا يعيشون مستسلمين للعادة أصبحوا يسعون للربح لأول مرة . وبعد أن كان يربط بينهم الجوار والقرابة .. أصبح السوق هو الميدان الجديد الذى يعرفون بعضهم فيه .

وكانت الرأسمالية هى الاسم الذى سوف يطلق على هذا النظام . والفقراء هم على وشك أن يصبحـوا وقود هذا النظام الجديد . أما الرأسمالى فهو طفله المدلل ، الذى ينصح الفقراء بالبقاء فى فقرهم لأن الله سيعوضهم عنه فى الآخرة . وإلى أن يحدث ذلك فسوف يظل هو يحدثهم عن الفضيلة ، خصوصا بعد أن يكسب المليون جنيه الأولى !

❑❑❑

فى هذا المناخ المشوش نشر كتاب أكاديمى متخصص عنوانه «بحث فى طبيعة وأسباب ثروة الشـعوب» . لم يكن مؤلف هذا الكتاب سوى أسـتاذ جامعى فى بريطانيا اسمه «آدم سميث» .. ولم يكن يعشـق شـيئا فى العالم سـوى كتبه . وحينما ولد كانت قريته ماتزال تستخدم المسامير نقودا . بل أن «سميث» نفسه لم يكن غنيا . ولم تكن علاقته بالنقود فى حياته مبشـرة بأن هذا الرجل سـوف يصدر أخطر كتاب فى العالم فى وقتها ، وأن صدور ذلك الكتاب فى سنة ١٧٧٦ سوف يجعل من تلك السنة المتميزة السنة رقم واحد فى عصر جديد كامل هو : عصر الإيديولوجيات الكبرى .

إن الكتاب نفسـه لم ينتشـر بسرعة ، ولم يحقق لمؤلفه ربحا يذكر . وحتى بعد صدوره بسـنتين لم يجد مؤلفه وظيفة يشـغلها سـوى نائب للجمارك فى «أدنبرة» ، وهى وظيفة مرتبها الشهرى خمسون جنيها . مبلغ متواضع تماما فى حينها .

لم يكن الكتاب نفسـه يضم أفكارا مبتكرة كثيرة . ولكنه ، مثل كل الأفكار الكبرى فى التاريخ ، كان حصيلة لتفاعل قوى عديدة متناثرة وغامضة تعمل منذ زمن بغير أن يلاحظها أحد . إلى أن جاء «آدم سميث» ليكتشف الرباط الخفى بين تلك القوى ، ويضع لها عنوانا واحدا هو «الرأسمالية» .. أو بعبارة أدق : الليبرالية .

كان جوهـر النظريـة التى يمثلها كتـاب «آدم سميث» هو : دعـه يعمل . إن واجب المجتمع هو أن يدع كل شـخص يسـعى لعمل كل شـىء يحقق للفرد مصلحته . إن الفرد يسعى للربح . إذن .. دعه يربح ، ويربح أكثر ما يستطيع . إن الذى سوف يحد من جشعه هو ليس سلطة الحكومة .. بل جشع تاجر آخر ينافسه . إن المصلحة الذاتية هى الأساس . والسوق هو الذى يقوم بدور القوة الخفية لتشغيل وتصحيح المجتمع . ففى السوق .. حيث الحرية والمنافسة .. سوف تستقر السلعة عند أقل سعر لمصلحة المستهلك نفسه .

إن هذه البذرة سوف تتعرض فيما بعد إلى تعديل وإضافة من مفكرين رأسماليين آخرين . ولكنهـا فـى تلك اللحظة ، وعند صدورها لأول مرة فى سـنة ١٧٧٦ ، سـوف تكون هى النظرية الأساسية التى تحدد ملامح ايديولوجية ليبرالية كاملة ، ونظام رأسمالى كامل . إن اعلان الاسـتقلال الأمريكى ، الذى وقعه مندوبو الولايات المتحدة فى نفس السـنة انفصالا عن التاج البريطانى ، سوف يعطى لهذا الكتاب معنى سياسيا . ثم ستأتى الثورة الفرنسية أيضـا لكى تمثل الجناح الديموقراطى فى سياسـة هذا النظام الاقتصـادى . ومن هذا كله تتكامل الايديولوجية الأولى فى عصر كامل من الإيديولوجيات المتتابعة .. التى ستتوالى فى شكل فعل ورد فعل لشىء أكبر وأهم هو : الثورة الصناعية .

□□□

لقـد انطلقـت الطلقة الأولى فى عصـر جديد كامل من الإيديولوجيـات المتتابعة .. من ليبرالية واشـتراكية وشـيوعية وقومية وفاشـية . إن كلا منها تمثل نظرية عريضة وشاملة للحياة والتطور .. بحيث أن جميع الحروب الكبرى التالية سوف تجرى تحت علم واحدة مـن تلك الإيديولوجيـات وباسمها . أن أتباع كل ايديولوجية منها – ابتداء من الرأسمالية إلى الشـيوعية – سـوف يؤمنون بأن الجنة لهم وحدهم .. والجحيم لأعدائهم . الحق فى جانبهـم والخطـأ كله هـو موقف خصومهم . . أن حروبهم سـوف تكـون عنيفة ونهائية وحاسمة وتجرى حتى النهاية .. لأنها اسـتعارت بعـض ملامح الحروب الدينية القديمة حتى القرون الوسطى .

إن السـبب هو أن الأديان الكبرى تبشـر أتباعها بدخول الجنة .. ولكن فى الآخرة . أما الرأسمالى أو الاشـتراكى أو الشـيوعى فيؤمن بأنه سـيرى الجنة هنا .. على الأرض .. وفـى حياتـه هو ، أو حياة أولاده على الأكثـر . وابتداء من آدم سميث أبى الرأسمالية إلى

كارل ماركس أبى الشيوعية إلى ماتزينى أبى القومية إلى موسولينى نموذج الفاشية .. سوف نلاحظ أن كل تلك الإيديولوجيات يجمع بينها ثلاث صفات أساسية :

□ فأولا – كلها تنذر نفسها لأهداف مثالية حالمة . أن المفهوم الليبرالى الرأسمالى عن السوق الحرة .. والمفهوم الشيوعى عن مجتمع بلا طبقات .. هما نموذجان لهذه الأهداف غير الواقعية من البداية . أهداف مثالية تثير التفاؤل نحو المستقبل .. وتكفل للأنصار الإيمان بأنه بمجرد الوصول إلى الهدف المرسوم .. فإن كل المشاكل الكبرى للحياة الحديثة سوف تختفى فجأة .. وفورا .

□ وثانيا – التبسيط الشديد . فكل ايديولوجية كبرى تميل من البداية إلى الإفراط فى التبسيط . أن كلا من الرأسمالى والشيوعى يؤمن على أساس : نحن وهم .. صديق أو عدو.. ملاك أو شيطان . إنك إما معه جدا .. أو ضده تماما . إما حليف له أو عميل للشيطان ، الذى هو بالضرورة عميل لقوة أجنبية وشيطانية ومخربة هى الطرف الآخر .

نظرية كارل ماركس مثلا تفترض لنفسها القدرة على احتكار التحليل العلمى للاقتصاد . وهكذا تبدأ تفكيرها العلمى بمقدمة غير علمية بالمرة . إنها تتنبأ بشكل محدد للمستقبل بناء على قراءة محددة للماضى . وأنت إما أن تقبل هذا كله أو ترفضه كله .

أن كل ايديولوجية تؤمن بأنها هى وحدها التى تعرف على وجه التحديد أين يوجد رخاء الجنس البشرى وماهى مصلحته .. بينما الواقع لم يعرف أبدا مثل هذه البدائل الحادة من الأبيض والأسود .

□ وثالثا – إن كل ايديولوجية من تلك الأيديولوجيات الكبرى استمدت قوتها وعنفوانها من نظرتها التفاؤلية الشديدة لمستقبل التقدم البشرى . إن هذا التفاؤل نفسه كان هو سر قوتها . ولكنه .. فيما بعد .. سوف يصبح هو سر ضعفها .

□□□

.. والآن ، بعد أكثر من قرنين من بداية هذا العصر الجديد – عصر الإيديولوجيات – أين يقف العالم ؟ بل .. وأين تقف هذه الإيديولوجيات نفسها ؟

إن الرأسمالية الموجودة اليوم فى أمريكا أو أوربا الغربية تكاد تكون لا علاقة لها بالنظرية الأساسية التى وضعها آدم سميث فى سنة ١٧٧٦ وما بعدها . ولو خرج هو اليوم من القبر

جـدلا لأصابـه الذعر من القيود العديدة التى وضعها المجتمع الغربى الرأسمالى على رأسمالية القرن العشـرين . بل أن الرئيس الأمريكى فرانكلين روزفلت ، وهو نفسـه رأسمالى قح ، كان هو الذى بادر فى ثلاثينات القرن العشرين إلى فرض القيود المتتابعة على الرأسمالية ، حماية للرأسمالية .. من الرأسماليين . وأوربا الغربية فى سعيها لإعادة النهوض بعد خراب الحرب العالمية الثانية ابتكرت لنفسها نموذجا من الرأسمالية يختلف جذريا عن النموذج الأمريكى من حيث إلزام الرأسمالية بدرجة أكبر من المسئولية الاجتماعية لم تكن ستلتزم بها طواعية .

والشـيوعية التى تحدث عنها كارل ماركس فى كتابه «رأس المال» وبعده سـوف تعتبر اليـوم ، فـى نظره هو علـى الأقل ، مزيفة إلى أكبر حد ممكن . ليـس هذا فقط .. بل إن معنى الشـيوعية نفسـه تغير كثيرا جدا . أن الشـيوعية كانت تعتمد على ايديولوجية هى «الماركسـية/ اللينينيـة» .. وقائد أعظم «لينين/ سـتالين» .. إلخ . وقوة أعظم هى الاتحاد السوفيتى .. وامبراطورية كبرى هى المعسكر الشرقى .. وحركة عالمية هى الأحزاب التابعة التى تقودها موسكو .

هـذا مـا اعتادت الشـيوعية أن تكونه . ولكن .. ماذا بقى منها الآن ؟ هناك شـيوعية صينية ، وشـيوعية يوغوسلافية ، وشـيوعية أوربية ، وشيوعيات أخرى كثيرة . إن هذا التعدد والإنقسـام لايعبر فقط عن ملامح جغرافية خارجية .. ولكن عن تفكك داخلى فى الإيديولوجية نفسـها .. حتى أن البعض حاول أن يطلق الشـيوعية السوفيتية إلى الأبد ولم تمنعه من ذلك سوى قوة الدبابات (كما فى حالات المجر وبولندا وتشيكوسلوفاكيا).

أكثر من ذلك .. فإن اليسار كان معناه التقليدى من قبل هو الاتجاه شرقا .. إلى موسكو . ولكن اليسار الآن أصبح معناه أكثر وأكثر هو الطلاق مع موسكو . وبعد أن كانت الشيوعية – كإيديولوجية – تخوض حربا هجومية قبل عشرين سنة .. أصبحت الآن تخوض حربا دفاعية داخل حدودها .

❑❑❑

مرة أخرى : ماذا حدث ؟ وكيف ولماذا حدث ؟

لقـد كانت كل ايديولوجية من قبل ، فى مواجهة خصمها ، تمثل الخير ضد الشـر . الآن .. تراجعـت الحـروب الإيديولوجية إلى الوراء تماما . إن اليمين فى السياسـة لم يعد

معناه وجود حكومة قوية فى السلطة .. وإلا اعتبرت حكومة فيديل كاسترو فى كوبا ، وخلفاء ماوتسى تونج فى الصين ، من اليمين .

واليسار لم يعد معناه المساواة الاقتصادية الكبرى .. وإلا فإن المجتمعات البدائية فى قبائل افريقيا تعتبر اليسار المتطرف . ولا حتى أصبح معنى اليسار هو التقدمية المذهبية . فالتطورات العلمية والتكنولوجية المتلاحقة فرضت مضمونا جديدا للتقدمية ، بحيث تصبح الدولة المتخلفة عن هذا المضمون هى الدولة الرجعية .

لم يعد اليمين معناه الأوتوماتيكى هو المحافظة على الأمر الواقع .

واليسار هو الآخر لم يعد معناه الأوتوماتيكى هو العدالة الاجتماعية وحدا أعلى للدخل.. وإلا فإن السويد تعتبر الآن أكثر يسارية من الاتحاد السوفيتى نفسه ، وهروب المخرج السينمائى انجمار بيرجمان ، ومن قبله انجريد بيرجمان ، هو هروب اختيارى من الجنة .

❑❑❑

إذن .. ماذا الآن ؟

أن الظاهرة الأساسية هى أن عصر الإيديولوجيا بدأ مولده فى أوربا الغربية ، ولأسباب كثيرة كانت مقبرته هناك أيضا . ففى كل دول أوربا الغربية تسيطر على الحكم أحزاب ملتزمة رسميا بالديموقراطية الدستورية . وفى كل دول أوربا الغربية هناك قبول متزايد لمسئولية الحكومة عن جزء كبير من الخدمات الاجتماعية .. بالرغم من أن بعض الليبراليين يدينون هذا الاتجاه .. وحتى بعض الماركسيين يدينونه أيضا من زاوية مختلفة باعتباره «خيانة لمصالح الطبقة العاملة» .. فإن الاتجاه مستمر والديموقرطية متزايدة . هناك مراجعات مستمرة داخل اليمين من جهة ، واليسار من جهة أخرى . بل أن كل منهما يتجه فى لحظات الشدة إلى الاستعارة من الآخر .

إذن .. ماذا بعد الإيديولوجيا ؟

لقد لعبت الإيديولوجيات دور الماكياج على وجوه الدول والشعوب لأكثر من مائتى سنة . والآن يزول هذا الماكياج بحيث تعود العلاقات بين الدول إلى ما كانت عليه دائما.. فتصبح علاقات بين مصالح اقتصادية . أن فرنسا وانجلترا ، اللتين فصلتهما دماء وحروب قرونا طويلة .. هما الآن فى ناد اقتصادى واحد هو السوق الأوربية المشتركة (ستتطور تاليا إلى : الإتحاد الأوربى) .

والصين والاتحاد السوفيتى اللتين جمعتهما ايديولوجية واحدة .. تطورت العلاقات بينهما إلى العداء الشديد ثم إلى الصدام الصامت فى المصالح الاقتصادية والعسكرية .

أكثر من ذلك .. أن الوفاق الأمريكى السوفيتى نفسه هو وفاق فى بعض المصالح الإقتصادية .. وربما يتحول تاليا إلى وفاق بين واشنطون وموسكو باعتبارهما أعضاء فى ناد واحد .. أو حتى «طبقة» واحدة .. ضد ناد آخر و«طبقة» أخرى .. هى دول الشمال فى مواجهة دول الجنوب .

❑❑❑

لقد نشأت الإيديولوجيات فى أوربا وأمريكا كظاهرة مصاحبة للثورة الصناعية . إن تحمل آلام المخاض الصناعى لم تكن ممكنة إلا فى ظل مجموعة شعارات براقة تعد الإنسان بأن الجائزة كبرى وموعدها قريب ومكانها هنا .

الآن استقرت الصناعة فى أوربا وأمريكا ، متزايدة فى اليابان وأجزاء من آسيا ، بحيث أن الإيديولوجية التى كانت بشير عصر قادم ، أصبحت مخدر عصر مضى . إنها كذلك عند الأغنياء . ولكنها لم تصبح كذلك ، بعد ، عند الفقراء . ففى اللحظة التى بدأت فيها الدول المتقدمة تخرج من عصر الإيديولوجيا .. بدأت الدول النامية تدخل هذا العصر نفسه ، بنفس الحماس ، ونفس الشعارات ، ونفس الانقسامات .

هل تصبح الإيديولوجيات بالنسبة للدول النامية ممثلة لمعارك قرن مضى .. أم دليل ولادة قادمة ؟

هذا سؤال آخر وله إجابة أخرى .

وقديما قالوا : من لا يصبح يساريا فى شبابه .. لا قلب له . ومن لا يصبح يمينيا فى شيخوخته .. لا عقل له . أنما بعيدا عن مثل تلك الأقراص الكلامية الساخرة أو المداعبة .. يظل التحدى الأكبر أمام مجتمعاتنا النامية هو : بناء الدولة العصرية .. وبأقصى سرعة .

فن الحب

دقت لى بعينيها السلام . أهلا !
ثم سألتنى : لماذا ؟ .. لماذا لم تقل لى : أحبك ؟ هى كلمة بسيطة ـ نعم ـ ولكنها مشحونة بالعواطف .. معبأة بالمشاعر . قلها لى مرة ومرة ومرة . فالحب يبحث عن التكرار . الحب لا يمل من الإعادة . الحب كلمة . إشارة . نظرة .
و ... بدأت أرد . رد قصير مختصر .
لقد ركزت ردى لها فى قبلة !
و .. لم تسألنى بعدها مطلقا . إنها فقدت النطق .
..... مع أننى ما زلت أرد !

عاش كما لم يعش إنسان من قبل !

عـاش مغامـرا ، وفيلسـوفا ، ومقامرا ، وأديبا ! عرف ألف امـرأة .. ولم تعرفه امرأة واحدة . قضى ليالى شبابه كعاشق . ولكنه مات فى شيخوخته كمجرم . صادق الملوك والأمراء والنبلاء . ولكنه عندما مات لم يتذكروا حتى اسمه الصحيح ، أو عمره الصحيح !

إنه كازانوفا دى سينجالت جوفانى جاكومو . مغامر ومؤلف إيطالى ولد فى سنة ١٧٢٥ ومات فى سنة ١٧٩٨ . ولكنه – ما بين مولده ووفاته – سجل قصة لأكبر عاشق فى العصر الحديث .

أن قيمة كازانوفا كأديب مازالت حتى الآن محل مناقشة . إن أهم عمل أدبى تركه لنا هـو مذكراته الخاصة . ولكـن الإجماع يظل فى النهاية حول نقطة واحدة : إن المهم ليس

● مجلة «آخر ساعة» : ١٩٦٩/٣/٢٦ .

هو الأسلوب الذى سجل به كازانوفا مذكرات حياته ، ولكن المهم هو الأسلوب الذى عاش به حياته نفسها .

كازانوفا..

رجل إيطالى ، طويل القامة ، عريض الكتفين ، قوى الكفين ، بارز العظام ، واسع الجبهة ، قلق العينين . منظر صائد ، مغامر . إنه يعرف شيئا من كل شىء . إنه شاعر بغير انتظام ، لص بغير احتراف ، فيلسوف أحيانا ، أديب أحيانا ، وجنتلمان دائما .

المهم أن هناك كلمة «أحيانا» بعد كل صفة تتعلق بكازانوفا .. إلا صفة واحدة : عشقه للنساء . أن كازانوفا لا يريد أن يعيش عمرا واحدا ، بل مائة . لا يريد امرأة واحدة .. بل ألفا ! و ... عرف كازانوفا فعلا ألف امرأة !

لقد عاش ٧٣ سنة . عاش لا يخجل أبدا ، بل يغامر دائما . لا يتردد أبدا ، بل يتقدم دائما . لا يفكر أبدا ، بل يندفع دائما .

لقد سجل مذكراته فى ١٦ مجلدا ، ملأها بأسفاره .. من بحيرة جنيف إلى سهول روسيا . من إيطاليا جنوبا إلى انجلترا شمالا . ومع ذلك فعندما نقرأ هذه المذكرات لا نجد مطلقا وصفا لأى منظر جميل فى الطبيعة . لا . لم يكن كازانوفا من هذا النوع . أن منظر فتاة صغيرة قذرة تضحك مع جنود سكارى أهم عنده من كل أعمال الفن الإيطالى . إنه فى المجلد الثانى من مذكراته يصف لنا كيف ذهب إلى نابولى (ايطاليا) لعمل هام . وفى الفندق الذى نزل فيه يسمع صوت امرأة تقضى ليلتها مع ضابط مجرى فى الحجرة المجاورة . أن كازانوفا سمع صوتها فقط . صوت امرأة شابة تضحك . إنه لم يعرف بعد هل هى حسناء أم دميمة .. جذابة أم منفرة .. ممكنة أم مستحيلة . لا شىء من هذا يعرفه بعد . ومع ذلك فإنه يلغى فورا كل خططه ويقرر البقاء لكى يجرب حظه مع هذه المغامرة الجديدة .

إن المدينة بغير مغامرة حب ليست مدينة تصلح له . إن الدنيا بغير امرأة ليست دنياه . أى أمرأة .. كل امرأة .. لا يهم . شهر واحد ، أسبوع واحد ، بل حتى يوم واحد . هذا يكفى . دع عينيه تقعان على أى امرأة . لحظتها تنبض كل شرايينه . لحظتها يتحرك نحوها بلا وعى .. بغير دافع سوى غريزته . أن كازانوفا يتخذ قراراته كطلقات مسدس..

نتيجة مفاجئة لضغطة بسيطة على الزناد . إنه مثل نابوليون – الذى عاصره فى أواخر حياته – يحب أن يضيف أرضا لأرض ومملكة لمملكة ، مدفوعا بعطش لا نهائى للغزو . وهو مثل دون جوان – الذى سبقه – يحب أن يغرى امرأة بعد أخرى ، مدفوعا بعطش لا نهائى للنساء .

أن كازانوفا فى الواقع لا يعشق امرأة واحدة . إنه يعشق كل امرأة . يعشق جنسا بأكمله ! إن شيئا لا يستطيع أن يقف بينه وبين كل امرأة يحبها . لقد شرب السم مرتين ، وأصيب بأمراض تناسلية أربع مرات ، وتلقى طعنات السيوف ١٢ مرة ، وقضى سنوات من عمره فى سجون أسبانيا ، وفر فى رحلات سريعة من مرتفعات صقلية إلى غابات روسيا . ولكن شيئا من هذا لم يستنفد طاقته . إن جسمه لا يستريح ، وشهوته لا تشبع ، وعشقه لا يموت . لكنه نسى شيئا واحدا .

و ... عرف كازانوفا ألف امرأة .

لم يكن هو وحده البادىء فى الألف مرة ، ولكن النساء أنفسهن كن يقبلن عليه . أن كل امرأة كانت تتحول إلى داعية له . دعاية تسير على قدمين ! أن كازانوفا كان بالنسبة لكل امرأة إلها لمدة ساعة ، معبودا لمدة ليلة ، ذكرى لمدة سنة ، وحسرة بعد عشرين سنة . السبب : إن كازانوفا لا يريد امرأة . إنه يريد كل امرأة . كازانوفا رجل بلا ماض.. بلا مستقبل . إنه يريد أن يعيش هذه اللحظة فقط .. مع هذه المرأة فقط . وعندما يحصل على امرأة ، فإنه يبحث فورا عن امرأة أخرى .

وكان دائما يجد هذه الـ .. مرأة !

سنة .. وسنة .. وسنة ، ثم : اكتشف كازانوفا أنه لم يتنبه لشىء واحد . انه نسى شيئا واحدا : الشيخوخة !

لقد اكتشف أن رأسا يشغل نفسه دائما بجسم آخر ، لابد أن يكون دائما رأسا فوق جسم شاب . الشباب هنا هدف . شرط . ضرورة . وبمجرد أن تتوقف شعلة الحياة فى الجسم الشاب .. تنهار الفلسفة كلها . إن كازانوفا ظل كازانوفا ما دامت أسنانه صلبة وبيضاء .. ما دام شعره أسود طويلا .. ما دام جسمه قويا فارعا . أما عندما تآكلت الأسنان ، وتساقط الشعر ، وانثنى الجسم .. فلقد ظهرت المشكلة المؤجلة . مشكلة بلا حل .

إن الحياة – كبنك متزمت – بدأت تطلب منه أن يعيد إليها ، مع الفوائد ، الطاقات الجسمانية التى أنفقها مبكرا وبسرعة . إن جاذبية كازانوفا تأتى من سعادته . وسعادته تأتى من شبابه . انه جذاب ما دام شابا . أما إذا لم يعد شابا .. إذا لم يعد جذابا .. فما هى النتيجة ؟

هذه هى : فى لندن .. يضطر إلى أن يتسلل ليلا فى الظلام والضباب حتى لا يحكم عليه بالسجن . فى وارسو يجرى البحث عنه كمجرم . فى فيينا ومدريد يحكم عليه بالنفى . فى باريس يتلقى أمرا بالقبض عليه وسجنه بغير محاكمة . إذن .. أصبح كازانوفا شخصا غير مرغوب فيه . شخصا لا يطلبه أحد . لا تطلبه امرأة .. وهذا هو المهم .

فى هذه اللحظة تبدأ مذكرات كازانوفا فى الكشف عن أولى علامات فقدان ثقته فى نفسه . إن التى أسعدته فى البداية هى التى تعاقبه الآن : المرأة ! وأى امرأة ؟ . عاهرة ! أنها تقابله فى لندن .. وتغريه .. وتجرده من كل نقوده .. ثم ، ترفض حتى السماح له بأن يضع إصبعا على جسمها . هنا بالضبط يقول كازانوفا : «أن ما أزعجنى أكثر هو أننى بدأت أفقد تلك القوة التى لازمتنى . لم أعد شابا» .

❑❑❑

لماذا ؟ لماذا هذه النهاية المؤلمة ؟

أن كازانوفا يقول فى مذكراته : «إن أربعة أخماس متعتى انصرفت إلى جعل النساء سعيدات» . فى هذه الجملة القصيرة تكمن مشكلة كازانوفا ، وإحدى مشاكل الحب نفسه فى عالمنا المعاصر .

المشكلة هى أن كازانوفا كان يعشق المرأة .. بينما المطلوب أن يعشق امرأة . أن كازانوفا لم يختر . لقد أراد كل امرأة . ليست هذه عاطفة . هذه غريزة . ليس هذا حبا ، بل شهوة . ليس شعورا .. بل رغبة . والرجل ليس إنسانا .. إنه صائد . بالطبع يستطيع الإنسان أن يكون صائدا أحيانا .. ولكن ليس دائما . والإنسان ـ أى إنسان ـ لا يستطيع أن يكون إنسانا ناضجا قبل أن يحب . وعندما يحب الإنسان فلا بد أن يختار . لابد من ذلك لأن الحب هو وجهة نظر . موقف . قرار . اختيار . إنه قرار بالاختيار . اختيار «هذه» المرأة بالذات ، أو «هذا» الرجل بالتحديد . ولا يستطيع أن يحب من لا يستطيع أن يختار .

❑❑❑

إن الحب – من وجهة نظر كازانوفا – هو علاقة جسد بجسد . كازانوفا ليس وحده فى ذلك .. بل أن معه فى هذه النظرة فريقا كاملا من الأدباء والشعراء ظهروا فى مراحل التاريخ الإنسانى .

وفى مقابل ذلك – فى الجانب الآخر – نجد من ينظر إلى الحب باعتباره عاطفة مجردة . انه هنا ليس علاقة جسد بجسد ، بل عقل بعقل . ليس تقابل غريزة مع غريزة ، بل عاطفة مجردة مع عاطفة مجردة . ليس الأدباء هذه المرة .. بل الفلاسفة هم الذين يأخذون الحب من أقصى اليسار إلى أقصى اليمين . أفلاطون مثلا . إن اصطلاح «الحب الأفلاطونى» فى حد ذاته ظل طوال الـ ٢٣ قرنا الماضية عنوانا لنوع من الحب يتجرد فيه الطرفان من أية علاقة جسدية ، ويسموان فيه على أية علاقة جسدية .

❑❑❑

هذه إذن هى الفلسفة والأدب يقفان على طرفى نقيض عنما يحاولان تفسير الحب . إن موقف كل أديب معاصر أو غير معاصر ، وموقف كل شعب وكل مجتمع ، لابد أن تجده فى نقطة ما بين الطرفين .

والواقع أن المفهوم الصحيح للحب هو الذى يحقق نقطة التوازن بين الجانب العاطفى والجانب الغريزى فى الحب . ونحن نحاول الآن أن نكتشف نقطة التوازن هذه من تاريخ الأدب نفسه .

لماذا الأدب ؟

لأن تاريخ الأدب هو فى الواقع تاريخ الحب بمعنى ما . فالحياة تقتبس بعض أشكالها من الأدب . لكن القاعدة أن الأدب – فى النهاية – هو «حياة مطبوعة على الورق» . وكل مفهوم إنسانى يلجأ فورا إلى الأدب للتعبير عن نفسه . إن الأديب والمؤرخ كلاهما يسجل التطور . فارق واحد بينهما : المؤرخ يجمد التطور فى درجة الصفر لكى يسجله . أما الأديب فيسخن التطور إلى درجة الغليان لكى يعبر عنه . إنه فارق فى الوسيلة وليس فارقا فى الهدف . وحينما نفحص أدب كل شعب سنجد فورا نموذجا للعلاقة بين الرجل والمرأة كما يراها هذا الشعب فى مرحلة من المراحل . فى الأدب العربى مثلا نجد قصة «قيس وليلى» وقصة «جميل وبثينة» . فى الأدب الإنجليزى «روميو وجولييت» . وفى الأدب الفرنسى نجد «بول وفيرجينى» و«أوكاسان ونيكوليت» ... إلخ .

إن الأديب يصف قبل أن يخترع . إنه يسجل قبل أن يحكم .

وفـى البحـث عن مفهوم صحيح للحب يجب أولا أن نحدد الحب الذى نبحث عنه . يجب مثلا أن نحدد طبيعته .. هل هو غريزة .. أم عاطفة ؟

الواقع أن الحب فيه جزء من الغريزة ، وفيه جزء من العاطفة . لكل جزء وجود مستقل وطبيعة مستقلة . الجزآن قد يوجدان معا .. وقد ينفصلان تماما . حينما ينفصلان نصبح أمام جنس .. وحب . الجنس غريزة . دافع رئيسى كالجوع والعطش ، له مثلهما أجزاء جسمانية تعبر عنه . هدفه اختفاء توتر جسمانى مرتبط بتغيرات داخل كيانه العنصرى .

لا شىء من هذا فى الحب . الناس العاديون يقولون إن مكان الحب هو القلب . فإذا لم يكن مكانه فى القلب .. فإننا لن نستطيع أن نحدد له مكانا آخر فى الجسم . الجنس غريزة عند كل الناس ، بينما الحب لا يشعر به كل الناس . بل أن ملايين من الناس – على مدى قرون كثيرة وفى ظل ثقافات عديدة – لم تعرف عاطفة الحب .

والجنس غريزة عامة ، بينما الحب عاطفة شخصية وشخصية جدا . إنه علاقة عاطفية بين هذا الرجل و هذه المرأة . الجنس شهوة ، والحب عاطفة . الجنس موجود فى الأنسان وفى الحيوانات ، بينما الحب هو حصيلة نمو ثقافى . الجنس يخضع للزمن .. فقد تزيد الرغبة الجنسية فى لحظة وتنقص فى لحظة أخرى . ولكن .. لاشىء من هذا فى الحب.. لأن الحب (مؤقتا) دائم .. أما الجنس فمؤقت . والرجل الذى تحكمه غريزته يبحث عن أى امرأة . أما الرجل الذى يحب فموضوعه محدد : هذه الفتاة وحدها .. بالذات !

والجنس – كغريزة – محدود فى اهتماماته .. بعكس الحب . الجنس يهمه لحظة الإرتواء فقط . أما الحب فيقف على الطرف الآخر . إن الشخص الذى يحب يكون سعيدا بسعادة محبوبته .. يتأثر لغيابها .. ويتألم لفراقها .. ويخاف عليها .. ويحزن لحزنها .

❑❑❑

والسؤال الآن هو : لماذا نحب ؟

إن كل حضارة تحاول تقديم اجابتها الخاصة على هذا السؤال . فى الحضارة الإغريقية مثلا .. توجد أسطورة أدبية جميلة تقدم تفسيرا لهذه المشكلة .

تقول الأسطورة : إن الإنسان خلق أولا من جنس واحد . ثم غضب الإله «زيوس» الأكبر على الإنسان ، فقرر أن يقسمه إلى شطرين . إلى نصفين . إلى ذكر وأنثى . وقرر الإله الأكبر

أيضا أن يظل كل نصف منهما محتاجا إلى نصفه الآخر .. يبحث عنه . ومقابل ذلك وضعت الألهة ضمانا جديدا . فمن كان مطيعا لها ولا يتمرد عليها .. فإن الألهة سترشده إلى نصفه الثانى .. وبذلك سيجد حبه الحقيقى . أما لو تمرد على الألهة .. فسيظل طوال حياته يبحث عن نصفه الضائع .. بلا جدوى .

إن الفلسفة وعلم النفس المعاصرين يصلان إلى نفس النتيجة حينما يفسران المشكلة كما يلى : إن الحب هو الحل الوحيد لمشكلة شعور الإنسان بوحدته . إن الحب هو القوة التى تحافظ على وجود الجنس الإنسانى . تحافظ على وجود الأسرة ، والعشيرة ، والمجتمع .

المهم .. إن الحب هو الحل الوحيد لمشكلة وحدة الإنسان وشعوره بتلك الوحدة . إنه ضرورة دائمة وحكم أبدى . هذا رأى متفق عليه بين أقدم الحضارات وأحدثها . الخلاف يأتى فيما بعد . الخلاف يأتى فى تفسير الحب نفسه . فى تحديد دوره .

❑❑❑

فعندما نام آدم .. خلقت حواء من ضلعه . لكنها كانت المرة الوحيدة التى نام فيها مستريح البال ! إن الإنسان – الآن وفى أى وقت – مشغول بالحب لأن الحب ملازم له دائما . من مولده إلى مماته .. من السبت إلى الجمعة .. من الصباح إلى المساء .. الحب معنا دائما .. أمامنا دائما .. لغز دائما .. متناقض دائما .

وعندما نعود خلفا إلى الحضارة الإغريقية نجد أن أفلاطون يذكر لنا أسطورة جميلة تلخص تناقضات الحب . وتقول الأسطورة : أن الألهة أقامت وليمة احتفالا بليلة مولد «أفروديت» . وكان من بين الألهة الحاضرين الأله «فوروس» .. إله الغنى . بعد قليل جاءت «بنيا» – الفقر – لكى تمد يدها طالبة الإحسان . وشرب «فوروس» من رحيق السماء حتى ثمل .. إذ لم تكن الخمر قد خلقت بعد .. فهام على وجهه فى حدائق زيوس حتى غلبه النعاس وذهب فى نوم عميق . ورأت «بنيا» – الفقر – أنها لا تملك شيئا فخطر ببالها أن تلد من «فوروس» – الغنى . وكان المولود اسمه إيروس (الحب) .

ومادام الحب – كما تقول الأسطورة – هو ابن «فوروس» و«بنيا» .. يعنى ابنا للغنى والفقر .. فإن أحواله تصبح كما يلى : إنه فى فقر دائم ، وليس كما يتوهمه عامة

النـاس مـن الرقة والجمـال .. بل على العكس هو خشـن الطبع ، قذر ، يمشـى حافى القدمـين ، بلا مأوى ، ينـام فى العراء وعند أبواب الدور أو فـى الطرقات . هذه صفات ورثها عن أمه .

ولكن .. لما كان قد ورث الغنى أيضا عن أبيه ، فإن الحب يسعى إلى الحصول على كل ما هو جميل وخيـر . إنه شـجاع ، مقدام ، صائد بارع ، واسـع الحيلة ، ينصب شباكه دائمـا . إنـه – مثـل أبيه – عاقل وغنى . ولكنه ـ مثل أمـه – فقير وغبى ! إنه حى فى لحظة.. ميت فى اللحظة التالية !

الحب إذن ليس إلها . ولكنه متوسـط بين الآلهة والبشـر . وهو ليس فانيا ولا خالدا . لو كان إلها ما طلب الحكمة . ولو كان جاهلا ما طلب الحق . إنه وسط بين الاثنين . إنه أيضا وسط بين طرفين : المحب .. والمحبوب .

❑❑❑

والحب نفسـه على أنواع . لقد رأينا من قبـل نظرتين متطرفتين للحب : واحدة ترى الحـب عاطفة مجـردة .. والأخرى تراه غريزة عمياء . واحـدة تناصر «الحب للحب» .. والأخرى تؤيد «الحب للجنس» .

وبين النظرتين تراوح موقف الأدب الإنسانى .

فى القرون الوسطى مثلا .. كانت القمة محجوزة دائما لمفهوم «الحب للحب» . والواقع أن أكثر العشاق خلودا هم الذين نسجت عنهم الأساطير وكتبت عنهم الروايات فى القرون الوسطى . بل أن الأدب المعاصر ما زالت لديه امتدادات لعشاق القرون الوسطى .

خـذ قصة «لوليتا» مثلا ، التى ألفها الكاتـب الأمريكى فلاديمير نابوكوف . أن لوليتا فتاة لا يزيد عمرها على ١٢ سنة وسبعة أشهر . إنها حتى لم تصل بعد إلى الثالثة عشرة . ولكـن «لوليتا» فتاة تتمتع بسـحر مزعج وصفاقة بريئة .. هكـذا تقول القصة . تقول أيضا أن «همـبرت» – البطـل – هو رجل أوربى فى أواخر الثلاثينات من عمره . إنه يعيش فى أمريكا منذ مدة قصيرة . إن همبرت يكتشـف لوليتا فى مدينة أمريكية صغيرة كان يقضى فيها إجازته . الحب من أول نظرة . ثم .. حيلة جنونية لكى يسـتحوذ على الطفلة . إنه يتزوج أمها أولا . ولكن الأم سرعان ما تموت فى حادث سيارة .

هنا يلجأ همبرت إلى أخذ لوليتا بعيدا إلى فندق . إنه يعطيها منوما .. ولكنه لا يجرؤ على أن يستفيد من نومها ، فيظل طول الليل بلا حراك . فى الصباح تكون هى – لوليتا – التى تغريه . ثم .. يبدأ الطيران الطويل للفتاة وزوج أمها .. تتبعهما خطيئتهما . إنهما يستمران فى التجول معا من مدينة إلى مدينة .. إلى اليوم الذى تهرب فيه لوليتا بعد أن أغراها رجل آخر (سوف يقتله همبرت) . وفى سن السابعة عشرة – بعد أن تزوجت من ميكانيكى شاب – فإنها تموت . أن موتها يقع بعد أسابيع قليلة من إصابة همبرت بجلطة دموية .

إن هذه فضيحة بأكثر مما هى قصة . والواقع أن المؤلف نفسه لا تفوته فرصة إلا ويعلن فيها إدانته للبطل ، ولهذا النوع من العشق الذى يمثله . إن البطل يجد نفسه مرفوضا من الوسط الاجتماعى المحيط به . مرفوضا من قوانينه وتقاليده . ويجد نفسه مهجورا من حوريته . والنتيجة إنه يرتكب جريمة جنونية ويموت مخمورا بالحب فى سجنه ، كعقوبة صارمة لعواطفه .

إننا فى هذه القصة نجد أنفسنا مشاركين للمؤلف فى إثارته ، مصفقين للغته ، ضاحكين معه ، ولكننا لا نتحرك عاطفيا مطلقا . فالقصة ، كعمل أدبى ، ليست قصة . أنها مجرد دراسة فى الجنس . إنها – أدبيا – فضيحة . ولكن ليس هذا هو الجانب الذى يعنينا فى الموضوع . يعنينا فقط أن نخرج بالتلخيص التالى : اننا هنا أمام عاشق . إنه عاشق يعلم مقدما أن حبه مستحيل . إن المجتمع يقف عقبة بينه وبين حوريته . البطل نفسه يقول فى القصة «لقد وجدت نفسى أنضج وسط حضارة تسمح لرجل فى الخامسة والعشرين بالارتباط بفتاة فى السادسة عشرة ، ولكنها لا تسمح له بذلك مع فتاة فى الثانية عشرة» .ولكن المجتمع ليس وحده ضد العاشق هنا . إنها الطبيعة أيضا .

هنا بالضبط نجد أن هذه الصورة امتداد لمفهوم فى الحب ساد القرون الوسطى . ليس من حيث أن موضوع العشق هو فتاة لم تصل بعد حتى إلى سن المراهقة .. لأن هذا كان وضعا مألوفا فى القرون الوسطى (الشاعر الإيطالى دانتى مثلا كان يحب بياتريس ، التى كان عمرها تسع سنوات . وفى القرن التاسع عشر تزوج الشاعر الأمريكى ادجار آلان بو لفتاة فى سن الرابعة عشرة). الإمتداد هنا ليس بالنسبة لموضوع الحب . بل بالنسبة لنوع الحب ، ونوع العشاق .

❑❑❑

إن أعظم مثل لذلك هو أسطورة «تريسترام» التى ذاعت وانتشرت فى الأدب الغربى فى القرون الوسطى . إن تاريخ أول نسخة منها يرجع إلى القرن الثانى عشر وتناولها فيما بعد شعراء كثيرون ، ولحنها «فاجنر» فى سنة ١٨٦٥ .

أن «تريسترام» – منذ لحظة ولادته – هو شخص تعيس أبوه مات حالا وأمه ماتت فور ولادته . ولكن الملك «مارك» – خاله – يأخذ الطفل اليتيم ليربيه فى قلعته . وينمو الطفل ليصبح شابا وفارسا وشجاعا . ويرسله الملك «مارك» إلى ايرلندا ليجىء بعروس له – للملك – هى الحسناء «ايزولده» . أن «تريسترام» و«ايزولده» يحسان بالعطش وهما فى السفينة فتحضر لها خادمة «ايزولده» شرابا سحريا خطأ .. كانت أم العروس قد أعدته لكى يشربه الملك «مارك» وعروسه بعد خطبتهما . ونتيجة لهذا الخطأ فإن «تريسترام» و«ايزولده» قد أصبح محكوما عليهما بمصير لا يستطيعان الهرب منه طوال حياتهما . إنهما بسبب هذا الدواء نشأ بينهما حب متبادل .. وقد اعترفا الآن لبعضهما بهذا الحب وذهبا فى عناق طويل .

ولكن «تريسترام» ما زال عليه واجب مكلف به . مهمة يجب أن ينجزها منذ كلفه بهاالملك «مارك» . وهكذا ، فبالرغم من خيانته للملك فإنه يسلم «ايزولده» إليه .

وفى ليلة الزفاف تقوم خادمة «ايزولده» – بفضل الحيلة – بأخذ مكان «ايزولده» فى السرير الملكى . وهكذا تنقذ سيرتها وتكفر فى نفس الوقت عن خطئها فى صب الشراب السحرى .

وتصل علاقة «تريسترام» و«ايزولده» إلى علم الملك . وبعد تفاصيل عديدة ، يتأكد من وجود هذه العلاقة ، فيقرر معاقبة كل منهما . إلا أن العاشقين يتمكنان من الهرب ويختبئان فى الغابات . لقد عاشا ثلاث سنوات فى الغابة حياة صعبة وقاسية .

ثم حدث ذات يوم أن الملك «مارك» كان يتجول فى الغابة فرأى العاشقين نائمين . ولكنه وجد سيفا بينهما . واقتنع الملك بدليل البراءة هذا .. فيقبل فيما بعد عرض «تريسترام» بأن يعيد إليه «ايزولده» . وفعلا .. تعود «ايزولده» إلى الملك .. ويرحل «تريسترام» إلى جزيرة بعيدة .. بل ويتزوج فعلا من امرأة أخرى .. حيث بدأ يتصور أن «ايزولده» لابد أن تكون قد نسيته بعد هذه المدة الطويلة .

ثم يصاب «تريسترام» فى يوم ما بجرح قاتل . إنه يعلم أن هناك امرأة واحدة تستطيع شفاءه من هذا الجرح : «ايزولده» . لهذا السبب يرسل فى طلبها . إنها تأتى إليه . وحينما تقترب سفينتها من جزيرته تنصب شراعا أبيض كعلامة أمل . ولكن زوجة «تريسترام» تراقب هذا كله .. وتمزقها الغيرة .. ومن ثم فإنها تذهب إلى «تريسترام» الراقد بين الحياة والموت .. وتخبره بأن الشراع أسود وليس أبيض . فى هذه اللحظة يموت «تريسترام» . وحينما تصل «ايزولده» بعد قليل فإنها تجد عشيقها قد فارق الجياة لتوه .. فتعانقه ميتا ، ثم تموت هى الأخرى .

❑❑❑

إن هذه الأسطورة تحدد لنا بالضبط ملامح الحياة فى القرون الوسطى . لا ، إنه ليس حبا .. بل عشق . فالبطل هنا يعشق محبوبته إلى حد العبادة . وهو يواجه حواجز مرتفعة وضعها المجتمع بينهما . إن الحب يعيش على وجود هذه الحواجز . فالعاشقان فى قصة «تريسترام» لايحبان بعضهما حقيقة . أن الاثنين يحبان .. الحب ! يعبدانه ويصليان له ويعيشان عليه . والحب عندهما يقاس بمدى غياب الطرف الآخر . ففى غيابه يحدث الألم وتبدأ الوجيعة . فى نفس الوقت لم يكن الزواج حلا للمشكلة . فالزواج يسحب من الحب رومانسيته وخياله .

إن شعراء القرون الوسطى استبعدوا الزواج كعلاج . أما العلاج فهو الموت ، والموت فقط . فالحب الرومانسى أيامها كان يخشى الواقع ويخاف من الضوء . إن الزواج هنا مستحيل . إنه مستحيل لأن عقبات ضخمة تمنعه . وإذا لم يضع المجتمع أو الطبيعة هذه العقبات (كما فى قصة لوليتا) فإن العاشقين يقومان بوضعها (كما يرمز السيف الذى وضعه تريسترام بينه وبين ايزولده) .

إن علاقة العشق هنا ترفض كل ما هو عاجل ، وتتحاشى كل ما هو قريب . والعشق نفسه لا يعيش هنا إلا من على مسافة . وعندما لا توجد هذه المسافة فإنه يخترعها . باختصار : العاشقان هنا يحبان الحب .. بأكثر مما يحب كل منهما الطرف الآخر !

هذا صحيح بالنسبة لأسطورة «تريسترام» ، وصحيح أيضا بالنسبة لروميو وجولييت فى الأدب الإنجليزى .. وفى قصة «بيرجنت» فى أدب الشمال .. وفى قصة «قيس وليلى» و«جميل وبثينه» فى الأدب العربى .

❑❑❑

إن هذا المعنى يلخصه جميل فى قصة «جميل وبثينه» عندما يقول :

يموت الهوى منى إذا لقيتها
ويحيـــا إذا فارقتهـا فيعـــود

إن العاشـــق هنا يحب الحب بأكثر مما يعشـــق محبوبته . إنه يعشق الحب ويفخر به . هذا أهم عنده من اللقاء بمحبوبته . إن عشقه يموت منه إذا التقى بها . يموت لأنه اقترب أكثر مما يجب . ولكنه يعيش من بعيد . من مسافة .

هـــل نريد نموذجا أكثر معاصرة ؟ فلنأخذ مثلا أغنيـــة أم كلثوم التى كتبها أحمد رامى «أنت الحب» عندما يقول الشاعر :

ولـــا أشـــوف حـــد يحبك
يحلالـى أجيب سيرتك وياه

هـــل هذا معقـــول .. أو منطقى ؟ نعم .. ولا . نعم هو منطقى إذا فهمنا أن الشـــعار هنا هو «الحب للحب» . ولكنه غير معقول ولا منطقى إذا فهمنا أن الحب عاطفة شـــخصية .. وشخصية جدا .. وليس هكذا «على المشاع» .. كما أنها لايجب أن تحتفظ بوجود المسافة بين طرفى الحب .

إن مدرسة «الحب للحب» أعطتنا أعمالا أدبية رائعة .. تاريخيا . ولكن العاشقون بهذا المفهوم لايحب أيهما الآخر حقيقة . إن كل ما يريده كل منهما ليس وجود الطرف الآخر بل غيابه . إن افتراقهما شرط جوهرى يمليه حبهما نفسه .

ولكن مدرســـة «الحب للحب» ســـيطرت على الأدب لمدة طويلة طويلة . ليس هذا مدحا أو ذما . ولكنه تسجيل تاريخى قبل كل شيء . إن مدرسة «الحب للحب» أعطت للأدب الغربى والعربى جزءا من أمتع رواياته الرومانسية والشاعرية . إنه مدرسة ترفض كل ما هو واقعى وتؤمن بكل ما هو خيالى . وهى تحتفظ دائما بمسافة كبيرة بين العاشق والمعشوق . إن مسرحية «أهمية أن يكون الإنسان جادا» لأوسكار وايلد مثلا تلخص هذا المعنى عندما يقول أحد أبطالها : «فى الحق إنى لا أرى فى طلب الزواج أية شـــاعرية . الشـــاعرية كل الشاعرية فى أن يكون الإنسان عاشقا . إن جوهر الشاعرية فى الحب هو أن يظل الأمر معلقا بين الشك واليقين» .

□□□

وعلى الطرف الآخر من هذه المدرسة فى الحب نجد مدرسة أخرى . مدرسة نجد أحسن مثـال لها فى أسـطورة «دون جوان». أن «دون جوان» هو البطل الأسـطورى فى كثير من الأعمال الأدبية حتى مطلع القرن العشـرين . لقد كتب عنه موليير ، وبايرون ، وبلزاك ، وبراوننج ، وجورج برنارد شو . لقد أصبح الاسم ممثلا لمن يغزو قلوب النساء ، تماما مثل زميله الإيطالى «كازانوفا» .

الاثنان إذن – دون جوان الإسبانى وكازانوفا الإيطالى – ينتميان إلى مدرسة واحدة فى الحب هىمدرسة «الحب للجنس» أو «الحب للغريزة» مقابل المدرسة الأخرى «الحب للحب» .

ونستطيع أن نقارن بين دون جوان وبين بطل أسطورة «تريسترام» مثلا . أن «تريسترام» يريـد مـا هو أكثر من الزواج . أمـا دون جوان فيريد ما هو أقل من الزواج . «تريسـترام» تسـتمر متعتـه بقدر بقاء محبوبته عذراء . أما دون جـوان فمتعته الوحيدة هى الإنتهاك ، الإغتصاب . وبمجرد أن يحقق هذه المتعة ينتهى كل شـىء . ينصرف . إنه ينصرف بحثا عن هدف جديد لمتعة جديدة .

و«تريسترام» يملك امرأة واحدة .. هى «ايزولده» . أما دون جوان فيملك ألفا وثلاث نساء (فى اسبانيا وحدها) . «تريسترام» أعمى عن الدنيا كلها إلا عن حبيبته . لقد تركزت الدنيا كلها فى شخص معشوقته . أما دون جوان فما يهمه هو الكثرة . التنوع . التعدد .

والحب للحب يحتاج إلى دموع كثيرة ، دموع مستمرة ، كما فى أسطورة «تريسترام» . أما «الحب للجنس» فيحتاج إلى قفشـات كثيرة ، كما فى أسـطورة دون جوان . إن الحب عند «تريسترام» عاطفة تقتل الغريزة . والحب عند دون جوان غريزة تقتل العاطفة .

لنأخذ مثلا هذه الكلمات التى يقولها دون جوان : «.. إننى التقطت تفاحة . استمتعت بها ، أنا أرى تفاحة أخرى .. من المنطقى أن ألتقطها أيضا» . هذا السبب – ومثله كثير – هو الذى يحرك دون جوان فى غرامياته . إنه ينسـى أن المرأة ليسـت مجرد تفاحة .. وأن المرأة يضايقها تماما رجل لم «يمسك» بها . يضايقها رجل يكتفى بـ «تذوقها» .

❑❑❑

ويمكـن أن نجرى مقارنه مماثلة بين دون جوان و«كازانوفا» . الاثنان يؤمنان بمدرسـة واحدة فى الحب . مدرسة «الحب للجنس» . الاثنان «يسخطان» الحب إلى مجرد غريزة . مجرد شهوة .

أن المقارنة بين هذين الإثنين بالذات كانت الشغل الشاغل لمؤرخين عديدين وكتاب مختلفين . إنها بالضبط – مع فوارق كثيرة – كالمقارنة بين تولستوى وديستوفيسكى .. أو بين ميشيل أنجلو وليوناردو دافينشى .. أو بين أفلاطون وسقراط .

فبالرغم من انتمائهما إلى مدرسة واحدة وشعار واحد فإنهما يبدآن من نقطتى بداية مختلفتين . كازانوفا يحب النساء . يحب الجنس كله . أما دون جوان فيكرههن . إن دون جوان يحب أن يكشف فى المرأة نقطة ضعفها . وهى لذلك تسعد به لحظة ، ولكنها تكرهه بعد ذلك سنوات . المرأة هنا تكره نفسها قبل أن تكره دون جوان . لنأخذ مثلا «دونا آنا» أو «دونا اليفرا» و ... كل الباقيات .. ظلت أرواحهن مسممة بعد تجربتهن مع دون جوان .

وإلى جانب ذلك هناك أيضا جوانب اتفاق كثيرة بين كازانوفا ودون جوان . فأولا .. كلاهما يؤمن بالجزء الغريزى فى الحب . كلاهما لايحب امرأة ، ولكنه يحب المرأة . كلاهما يؤمن بأن النساء تحت ملابسهن عاريات متساويات . وكلاهما .. بعد هذا كله : لا يحب !

❑❑❑

إذن .. ما هو الحب ؟

إذا لم يكن الحب هو قيس وليلى ، أو جميل وبثينه ، أو روميو وجولييت .. فما هو الحب ؟

إذا لم يكن الحب هو كازانوفا ، ولا دون جوان .. إذن .. فما هو ؟

إن الحب هو اختيار . هو بداية غريزية تتبعها نهاية عاطفية . إنه ضرورة إنسانية . الحب ضرورة .. لأن الإنسان لا يستطيع أن يصنع من وحدته سجنا يعيش فيه . هذا معناه الجنون . والإنسان فى جميع العصور والثقافات يواجه نفس السؤال : كيف يتغلب على وحدته وانعزاله ؟ . السؤال واحد مع رجل يعيش فى الكهف ، ومع بدوى فى الصحراء ، ومع فلاح فى الحقل ، ومع التاجر الفينيقى و .. مع الموظف وعامل الإنتاج فى العصر الحديث .

والحب بعد هذا كله : فن . إنه فن له أصول وقواعد مثل أى فن . إن الحب فن لأسباب عديدة . فأولا .. معظم الناس يرى مشكلة الحب باعتبارها أساسا مشكلة أن يكون

محبوبا .. أكثر مما هى مشكلة أن يحب . وفى السعى نحو هذا الهدف فإن الناس – أنا وأنت وهى وهم – يسلكون طرقا مختلفة .

إن الرجل مثلا ، يهمه أن يكون ناجحا ، قويا ، غنيا . والمرأة يهمها أن تكون جذابة ، أنيقة ، جميلة . إن كلا من المرأة والرجل يريد أن يكون جذابا لأكبر عدد من الجنس الآخر . إن الجاذبية نفسها تختلف من عصر إلى عصر ، ومن مجتمع إلى مجتمع ، ومن طبقة إلى طبقة داخل نفس المجتمع .

فمنذ عشرين سنة مثلا كانت الفتاة الجذابة هى التى تطبخ وتكنس وتغسل جيدا ، وتقنع كثيرا ولا تناقش أبدا وتطيع دائما . وكان الرجل الجذاب هو الذى يتمتع بشوارب مبرومة وعضلات مفتولة .. «ابن بلد» مع أصدقائه و«سى السيد» مع أسرته .

والنظرة إلى الحب تختلف أيضا من عصر إلى عصر ، ومن مجتمع إلى مجتمع . الناس منذ عشرين سنة مثلا – وحتى الآن – يرون المسألة على أنها «وقوع» فى الحب . كلمة «وقوع» هنا توحى بأن الحب مسألة سلبية للغاية ، نقع فيها دون تخطيط سابق أو استعداد سالف . وتوحى أيضا بأنه لاشىء أسهل من الحب .

❑❑❑

وأول خطوة لتصحيح هذا كله هى أن نؤمن أولا بأن الحب مسألة حتمية ، وثانيا بأن الحب .. فن .

فالحب حتمى .. ضرورى ضرورة الحياة نفسها . هكذا صورته أساطير الإغريق ، وحددته الأديان ، وتؤكده الحقيقة . أن المفكر الفرنسى «فولتير» مثلا يرى .. أن الحب هو الشىء الوحيد الذى يعوض الإنسان عن كل الصفات التى أعطتها الطبيعة للحيوانات : القوة ، الجمال ، الرشاقة ، والسرعة .. بل إنه تفرد عن كائنات حية كثيرة لا تعرف متعة الإتصال أو العلاقة الجنسية . إن الأسماك مثلا محرومة من هذه البهجة .. حيث الأنثى تضع وتقذف بملايين البيض على الوحل .. ثم يأتى الذكر بالصدفة فيعوم فوقها ويخصبها دون أن يشغل نفسه بمن تكون الأنثى التى وضعتها .

والإنسان هو الحيوان الوحيد الذى يعرف مثلا ما هى القبلة . إن كل جسمه حساس . إن شفتيه مثلا قادرتان على تحقيق هذه المتعة التى لايعرفها كائن آخر سواه : القبلة .

وفيكتور هوجو يقول : «أقصى سعادة فى الحياة .. هى أن نقتنع بأننا محبوبون» .

والشاعر الهندى طاغور يقول : «الحب هو الحياة فى تمامها وامتلائها .. كالكأس مليئة بخمرها» .

❑❑❑

هذه هى متعة الحب .. وتلك هى حتميته . وحينما أحب فإننى أبدأ فى رؤية الدنيا بشكل مختلف . إن الوسادة تحت رأسى تصبح رفيقا لى ، وضوء القمر متعتى ، والنجوم حروفى ، والأزهار رموزى ، والهواء طعامى . فالحب يجعلنى أرى الدنيا كما لم تكن دنيا . والحب قدر . مصير . نهاية . بل – أكثر من ذلك – يثبت لنا التاريخ والأدب أن الإنسان حينما لايجد الحب فإنه يخترعه . وحينما يخترعه .. فإنه يصدقه .

إن الأديب الروسى مكسيم جوركى مثلا له قصة بعنوان «ستة وعشرون وواحد» . وفى القصة يقول على لسان أبطال القصة الستة وعشرين : «كنا – مثل كل الناس – لا نستطيع أن نعيش دون أن نعبد شيئا ما . شخصا ما . ولم يكن أمامنا سواها .. فعبدناها» . لقد اشترك ستة وعشرون عاملا فى حب فتاة واحدة عندما لم يكن أمامهم حل آخر غير ذلك !

وفى الحرب العالمية الثانية قرأناقصة الجندى الألمانى الذى ظل يبكى بعصبية .. لأن دبابته دمرت . إن فقدانها بالنسبة له كان مسألة تعنى أكثر مما يعنيه فقدانه لزملائه . لماذا ؟ لأن الدبابة كانت شيئا مساويا عنده لرفيق إنسانى . كانت طبقة حامية له ضد العالم الخارجى القاسى .

ومن أروع القصص التى قرأتها قصة للكاتب الفرنسى «بلزاك» بعنوان «غرام فى الصحراء» . القصة بسيطة .. غاية فى البساطة . وهى بسيطة لأنها إنسانية . وهى قمة فى إنسانيتها . هذه هى : أن جنديا فرنسيا جاء إلى مصر مع جنود نابوليون . ثم أسرته قبيلة من الأعراب الذين يعيشون فى الصجراء الغربية . ولكنه فر من الأسر . يفر إلى أين ؟ لا شىء أمامه سوى الرمال يمينا ويسارا . أماما وخلفا . صحراء فى صحراء . ثم كاد يموت من اليأس . أن عمره ٢٢ سنة ولكنه أحس بأنه أصبح شيخا فى السبعين . ثم نام فى إحدى المغارات . نام لكى يستيقظ على صوت حيوان ضخم إلى جانبه : لبؤة ! ماذا حدث بعد

ذلك ؟ أحبته اللبؤة ! تصور ؟ بل إنها بدأت تغار عليه عندما بدأ يتطلع بشوق إلى نسر رآه فجأة يحلق فى السماء ! و .. أحبها هو !

المهم : بساطة القصة واضحة . نحن نحب .. لأنه لابد لنا أن نحب . لابد . لا مفر . لا فكاك .

□□□

ثم يأتى سؤال : كيف نحب ؟

إن الحب فن . انه فن لأسباب كثيرة سبق عرض بعضها . وما دام الحب فنا فلابد أن تكون له – مثل أى فن – قواعد وأصول . أن أى فن .. لنقل مثلا الموسيقى أو الرسم أو الطب أو حتى التجارة .. له أصول وقواعد . فهل فى الحب مثل هذا ؟

طبعا . هكذا يقول عالم النفس الأمريكى «ايريك فروم» . انه يقسم مراحل أى فن إلى مرحلتين . أولا : إجادة القواعد النظرية . وثانيا : الممارسة والتطبيق .

فإذا أردنا مثلا أن نتعلم «فن» الطب .. فيجب أن نتعلم أولا الحقائق العامة عن الجسم الإنسانى وعن أحوال إصابته بالأمراض . وعندما نمتاز فى ذلك لا يبقى لدينا سوى اختبار هذه القواعد فى التطبيق .

والحقائق العامة فى الحب تقول أن الإنسان يبدأ طفلا . والطفل يحب أمه مثلا لأنها تحبه . يحب أسرته لأنها تحميه . إن شعاره هو «أنا أحب .. لأننى محبوب» . أما الرجل الناضج فشعاره يجب أن يكون «أنا محبوب .. لأننى أحب» .

فالحب هو أساسا ليس علاقة بشخص آخر . بل هو أولا «شعور» نحو شخص آخر . شخص محدد . فأنا إذا كنت أحب فتاة محددة .. فإننى فى الواقع أحب فيها كل الناس . وإذا كنت قادرا على أن أقول لها «أنا أحبك» فيجب أن أكون قادرا على أن أقول لها أيضا «أنا أحب فيك كل الناس .. أحب الدنيا من خلالك .. وأنا أحب فيك نفسى أيضا» ! لماذا ؟ لأن وجود حالة حب بين طرفين معناه فى الواقع أن كل طرف منهما يرى فى الطرف الآخر امتدادا له . استمرارا له . استكمالا له .

وفى الحب لابد أن يكون الطرفان متساويين . عندما أكون عبدا فإننى أتمنى أن تكون محبوبتى سيدة على . هى تقودنى وأنا أستسلم لها . عندما أكون طاغية أريدها خادمة

لى . أنا فى المقدمة .. وهى ورائى . أما عندما أكون إنسانا .. فيجب أن تكون مساوية لى.. مشاركة لى . رأسا برأس . رأيا برأى . حبا بحب .

❑❑❑

والحـــب هو ابـــن الوهم .. وأبو الحقيقة . إنه يبدأ بغير منطق ، ولكنه ينتهى بمنطق . فالحب هو الدواء الفريد ضد الموت . إننا فى الحب – وبالحب – نسعى إلى تخليد أنفسنا . ونحن نخلد أنفسنا على الأرض بشرط أن نموت . بشرط أن نسلم حياتنا إلى آخرين . نسلم حياتنا لهم .. ثم نموت .

وفى هذا المعنى يقول الشـــاعر الهندى الكبير الراحل طاغور : «ليس الابن عزيزا على أبيه لذاته ، ولكن الأب يرى فيه امتدادا لنفسه ويرى فيه خلود حياته لأجيال مقبلة» .

أذن .. فى الحب يسعى كل طرف إلى تخليد نفسه بواسطة الطرف الآخر ومن خلاله . وهذا يحدث دائما .. على الرغم من أنه لايكون ســـاعتها واعيا بذلك .. أو متنبها لذلك . أن كل طرف يبنى متعته على هذا الأساس .

والحـــب دائمـــا علاقة بين اثنـــين . كل منهما هـــو العبد والطاغية فـــى وقت واحد . عبد للآخـــر وطاغيـــة عليه دائما . إذا كان عبدا دائما ، أو طاغية دائما ، فهذا ليس حبا . هذا مرض .

والرجل يريد دائما أن يشعر بالحب . أو يريد ـ وهو نفس الشىء ـ أن يشعر بالحنان . إن الرجل يريد من امرأته أن تدرك وتشارك فى متاعبه وهمومه . أن الشحات يشعر بعرفان أقل للحسنة التى يقذفها له رجل متجهم .. يسرع فى الطريق . ولكنه يشعر بعرفان أكثر لمن يشفق عليه بدون أن يعطيه حسنة .. على الرغم من أنه ـ لاعتبارات عملية ـ قد يفضل الأول !

وحب المرأة – فوق كل شىء – هو دائما حنون فى جوهره . به شىء من الأمومة . إن المرأة تشـــفق على رجلها لأنها لا تحب أن تراه يقاســـى ويتعذب . جولييت كانت حنونا على روميو .. وايزابيل على لورانزو .

فالنتيجـــة : إن المـــرأة .. أكثر حبا من الرجل . أكثـــر نقاء . أكثر صفاء . أكثر عمقا . والحنان هو جوهر الحب الإنسانى . إنه حنون أكثر كل من يحب أكثر .

❑❑❑

ومن ناحية أخرى فإن الحب نشاط ، وليس حركة سلبية . إنه موقف وليس «وقوعا» . إنــه عطاء قبل أن يكون أخذا . فالشــخص الذى لا يحب أحــدا لايمكن أن يحبه أحد ! أو – بكلمات الفيلســوف الألمانى «نيتشــه» : «يجب أن نحترس من الشــخص الذى يكره نفســه ، لأننا متأكدون من أننا ســوف نصبح ضحايا غضبه ونقمته . دعنا إذن نحاول أن نقنعه بأن يحب نفسه» .

والحــب بعــد ذلك هو تضحية . إنه تضحية مشــتركة . لا يهم مــن يبدأ . لا يهم من يضحى أكثر . المهم أن كل طرف مستعد للتضحية .

ولكن شعراء وأدباء القرون الوسطى كان شعارهم فى الواقع هو «الحب للحب» كما سبق القول . لقد قدموا لنا أعظم العشــاق . ولكن هؤلاء العشــاق أنفسهم سقطوا تماما فى العصر الحديــث . لا يوجــد الآن روميــو ، أو دون جــوان ، أو كازانوفا ، أو قيس ، أو جميل . لا يوجد واحد من هؤلاء كبطل فى الحياة أو فى الأعمال الأدبية . لأن مثل هؤلاء العشــاق يخيفهــم الواقــع ، وتقتلهم الحقيقة . أن الغرام الخيالى الرومانســى أصبح نوعا من الحب يرفضه العصر الحديث الآن ، متى كانت ترفضه الحياة نفسها فى كل وقت .

أن الأديب الروســى العظيم «تولســتوى» لــه قصة تلخص هذا المعنــى . قصة عنوانها «ســعادة الأســرة» .. فبعد حــب عنيف تزوج الرجل والمــرأة . ولم يكد يمضى وقت طويل حتــى بدأت المرأة تحس بــأن الزواج أصبح «قفصا» لحبها . إنهــا تقول فى القصة : «.. لم يكــن هــذا ما أحتاجه ، أو ما أطلبه . أنــا أريد صراعا . أريد مقاومة . أنا أريد العاطفة تقــود الحيــاة ، لا الحياة تقود العاطفة» . وهى تقول أيضا : «.. إن حياتنا أصبح لها نمط واحد . أن احساساتنا قد تجمدت فى القلب . انشراح فى الصباح . احترام فى الظهيرة . حب فى المساء» .

إنها نهاية طبيعية لهذا النوع من الحب : الحب الذى يحلق فى السماء دون أن يقف علــى الأرض . هــذا امتداد لمفهوم الحــب الأفلاطونى .. وهو امتــداد أيضا لمفهوم «الحب للحب» عند أدباء القرون الوسطى . فالحب عندهم كان ساحرا بقدر ما هو محرم وممنوع.. ميــت بقدر ما هو معــترف به علنا . أن الحب عندهم يتغــذى بالصعوبات التى يقاتلها . فالحب يختار العذاب والألم قبل أن يختار السعادة . إنه يدفع الشخص إلى أن يموت من أجل امرأة لم يكن ليحبها لو عاش معها .

لهذا السبب فإن الحب للحب مفهوم لا يصلح الآن لعصرنا هذا . لا يصلح لأنه يحتاج إلى المعارضة ، أو حتى إلى الرفض الرسمى ، لكي يلتهب ويشتعل . وإذا افتقر مثل هذا الحب إلى العقبات ، فإن النهر الذى يدفعه إلى الأمام يصبح فارغا ، كاشفا عن الأرض الحقيقية ، عن الواقع المجرد .

لقد سقط «الحب للحب» فى عصرنا الحديث لأسباب كثيرة . أحد هذه الأسباب هو حصول المرأة على المساواة السياسية والقانونية و – أهم من ذلك – المساواة الاقتصادية . فمجرد أن تصبح المرأة كائنا متساويا ، معناه أن من حقها أن يصبح لها حياة خاصة بها . هذا يضطر الرجل إلى أن يعاملها ككائن حقيقى . كائن بعيد عن الأوهام ، يجب التفاهم معه عمليا . كائن له مكانة يجب احترامها . إن المرأة ، فى وضعها هذا ، من الصعب جدا أن تستسلم لمدرسة «الحب للحب» التى يمثلها عشاق القرون الوسطى . الحب من بعيد.. من مسافة .

إن المرأة الحديثة – مثل الرجل الحديث – أصبح من حقها أن تجرب ، وأن تختار ، وأن تحب . قد تفشل مرة . قد تفشل مرات . ولكن العلاج الوحيد لأخطاء الحرية .. هو مزيد من الحرية .

❑❑❑

إن الله خلق آدم وحواء وتركهما يعيشان فى الجنة . وعندما عصيا ربهما وأكلا من الشجرة المحرمة أنزلهما إلى الأرض . هذا طبيعى . هذا ضرورى . فلا توجد حرية قبل أن يوجد حق الاختيار . أن آدم لم يصبح إنسانا قبل أن يكون من حقه أن يعصى ربه . وكل إنسان منا ليس حرا قبل أن يستطيع أن يختار ، وأن يرفض . أما إذا لم يكن من حقه الإختيار ، فإنه ليس إنسانا ، مثلما هو ليس حرا . والوجه الآخر للحرية هو المسئولية . فمن يختار عليه أن يتحمل تاليا عواقب اختياره ومسئولية حريته .

ومن منظور الحب فإن الحق فى الإختيار أصبح هو الشرط الحقيقى فى الحب . كان حقا مقصورا على الرجل طوال قرون وقرون . الجديد أنه أصبح أيضا حقا معترفا به للمرأة فى المجتمعات الناضجة . فالمجتمع لايمكن أن يكون ناجحا قبل أن يتعامل نصفاه من نقطتين متساويتين . من رجل وامرأة . وليس من سيد وخادمة .

و ...

لقد أمتعنا الأدب الإنسانى حقا ونحن نتابع فيه صوره المختلفة للحب . وأمتعنا الشعراء – مع اختلافنا أو اتفاقنا معهم – فى تصويرهم الصادق لعاطفة أساسية لازمت الإنسان منذ نشأته . لقد حولوا لنا الحب إلى فن . فن نتمناه دائما بقدر ما نتصنع الزهد فيه أحيانا .

إن الشـاعر الهندى الكبير الراحل طاغور يصور أحد هذه المواقف فى ديوانه «البستان» حينما يكتب على لسان امرأة :

قال لى فى همس : ارفعى عينيك يا حبى
فنهرته بحدة وقلت : امض !
لكنه لم يحرك ساكنا
وقف أمامى ، وأمسك بكلتا يدى ،
فقلت : دعنى !
أدنى وجهه من أذنى ، فنظرت إليه
وقلت : يا للعار !
لكنه لم يحرك ساكنا .
ولامست شفتاه وجنتى ، فارتجفت
وقلت : يا لجرأتك !
لكنه لم يخجل .
وثبت زهرة فى شعرى
فقلت : لا فائدة !
لكنه وقف بلا حراك .
ثم أخذ الإكليل من عنقى ، ومضى بعيدا ..
إننى أبكى ، وأسأل قلبى :
لم لايعود مرة أخرى ؟!